الباب التاسع والعشرون

الرهبان والإخوان

١٠٩٥ — ١٣٠٠

الفصل الأول

حياة الرهبنة

لعل الذى أنجى الكنيسة من محنتها لم يكن هو ما لجأت إليه محاكم التحقيق من تعذيب ؛ بل كان نشأة طوائف جديدة من الرهبان انتزعت من أفواه الضالين دعوة التقشف الدينى والفقر ، وظلت مدى قرن من الزمان تهب طوائف الرهبان ، وغير الرهبان من رجال الدين ، مثلا طيباً من الإخلاص المطهر للنفوس .

وكانت الأديرة قد تضاعف عددها فى أثناء العصور المظلمة ، وبلغت ذروتها فى القرن العاشر المضطرب الذى ساءت فيه الأحوال إلى أقصى حد ، ثم أخذ عددها فى النقصان حين أخذ النظام يسود الشئون الزمنية ، وأخذ الرخاء فى الازدياد : مثال ذلك أنه كان فى فرنسا حوالى عام ١١٠٠ خمسمائة وثلاثة وأربعون ديراً ؛ وفى عام ١٢٥٠ كان فيها ٢٨٧ ؛ وربما كان هـذا النقص فى عدد الأديرة قد عوضه ازدياد متوسط أعضائها ، ولكن الأديرة التى كان رهبانها يبلغون المائة كان جد قليل . وكان لا يزال من السنن المتبعة فى القرن الثالث عشر عند الآباء الأتقياء أو ثقال الظهر أن يهبوا أطفالهم فى سن السابعة أو ما بعدها إلى الأديرة « زلفى » إلى الله . وهكذا بدأ القديس توماس أكويناس حياته فى الدير ، وكانت طائفة الرهبان البندكتيين ترى أن النذر الذى ينذره أبوا الطفل بأن يهباه إلى الدير

لا يمكن الرجوع فيه[٣] . أما القديس برنار وطوائف الرهبان الجدد فكان من رأيهم أن لا ضير على الطفل الموهوب للدير إذا عاد إلى العالم متى بلغ سن الرشد[٤] ، وأصبح الراهب الراشد على مر الزمن فى حاجة إلى إجازة بابوية إذا أراد أن يرجع فى يمينه من غير أن يرتكب ذلك إثما .

وكانت معظم الأديرة الغربية قبل عام ١٠٩٨ تسير على نمط ما من أنماط طائفة الرهبان البندكتيين بدرجات متفاوتة من الاستمساك بمبادئ هذه الطائفة . فكانت تخصص للمبتدئ سنة يستطيع الطالب فى أثنائها أن ينسحب من الدير بكامل حريته ، وفى ذلك يقول الراهب قيصريوس الهيستر باخى Caesarius of Heisterbach إن فارساً من الفرسان انسحب من الدير « متذرعاً بتلك الحجة الدالة على الجبن وهى أنه يخشى الحشرات التى فى ثياب (الرهبنة) ، وذلك لأن ملابسنا الصوفية تأوى الكثير من الحشرات »[٥] . وكان الراهب يقضى من يومه أربع ساعات فى الصلاة ؛ وكانت وجبات الطعام قصيرة الأجل ، وتقتصر عادة على الخضر ؛ أما بقية اليوم فكانت تقضى فى العمل ، والقراءة ، والتعليم ، وأعمال المستشفيات ، والصدقات ، والراحة . ويحدثنا قيصريوس بأن ديره وزع أثناء القحط الذى حدث فى عام ١١٩٧ ألفاً وخمسمائة صدقة من الطعام فى يوم واحد و« حافظ على حياة كل من جاءنا من الفقراء حتى حل موعد الحصاد »[٦] وذبح دير للسسترسيين فى وستفاليا جميع ضأنه وماشيته ، ورهن كتبه وآنيته المقدسة ، ليطعم الفقراء[٧] ، وشاد الرهبان بعملهم وعمل أرقاء أرضهم أديرة ، وكنائس صغيرة وكبيرة ، وفلحوا ضياعاً واسعة ، وجففوا مستنقعات ، واستصلحوا أرض الغابات ، ومارسوا مائة من الصناعات اليدوية ، وعصروا أحسن النبيذ والجعة . ولقد دربت الأديرة آلافاً من الرجال الصالحين القادرين على الآداب والأنظمة الخلقية والذهنية ، وإن كانت فى ظاهر الأمر قد انتزعت الكثيرين منهم من

العالم لتدفنهم فى غمار الصلاحية الأنانيّة ، ثم أعادتهم إليه مرة أخرى ليكونوا مستشارين للأساقفة ، والبابوات والملوك ومديرين لأعمالهم(*) .

وفاض ثراء المجتمع المتزايد على مر الزمن على الأديرة ، وكان سخاء الشعب مصدراً لما كان ينغمس فيه الرهبان أحياناً من ترف . ولنضرب لذلك مثلا دير القديس ركوبيه St. Riquier ، ولم يكن من أغنى الأديرة ولكنه كان له ١١٧ تابعاً يملكون ٢٥٠٠ بيت فى البلدة التى كان قائماً فيها ، ويحصل من مستأجريها على عشرة آلاف دجاجة وعشرة آلاف ديك مخصى مسمن ، وخمسة وسبعين ألف بيضة ، ... وعلى أجر نقدى معتدل لكل فرد ولكنه فى مجموعه كبير(٨) . وثمة أديرة أعظم من هذا الدير ثراء وهى أديرة مونتى كسينو Monte Cassino ، وكلونى Cluny ، وفلدا Fulda ، والقديس جول St. Gall ، والقديس دنيس St. Denis ، وكان رؤساء الأديرة أمثال سوجر Suger رئيس دير القديس دنيس ، وبطرس المبجل رئيس دير كلونى ، وحتى سامسون Samson رئيس دير القديس إدمند فى بيورى ، كان هؤلاء الرؤساء سادة أقوياء عظماء أصحاب ثروات مادية طائلة وسلطان سياسى واجتماعى عظيم ؛ وهذا هو سوجر بعد أن أطعم رهبانه وشاد كنيسة(٧) فخمة كبرى تبقى لديه من الموارد المالية ما يمكنه من أن يتكفل

(*) يقول عالم من كبار العلماء ليس فى العادة من يشفقون على الكنيسة : « ليس أدل على كذب التهم التى يذيعها السفلة وهى أن رهبان العصور الوسطى كانوا نهمين ، متلفين ، مبذرين ، فاسقين ، ليس أدل على هذا الكذب من مئات السجلات ، وقوائم الجرد التى بقيت حتى اليوم ، والتى تشهد بما كان يتصف به الرهبان من عناية ، وذكاء ، وأمانة فى إدارتهم أعمالهم . وإن ما قام به الرهبان من إصلاح اقتصادى لأوربا فى العصور الوسطى ليشهد بأنهم كانوا بوجه عام ملاكا وزراعا أذكياء » « تاريخ العصور الوسطى الاقتصادى والاجتماعى لطمسن Thomson, Eeouomic and Social History of the Middle Ages ؛ ٦٣٠ ويقول رينان المتشكك : « إن أكمل أعمال المسيحية وأعظمها أثرا هى التى قامت بها طوائف الرهبان » طبعة مارك أورل Marc Anrèle بباريس ٦٢٧ .

بنصف نفقات إحدى الحملات الصليبية[٩] ، ولعل القديس برنار كان يعنى سوجر حين كتب يقول : « لو أننى قلت إنى لم أر رئيس دير يركب على أس موكب مؤلف من ستين فارساً أو أكثر لكنت من الكاذبين »[١٠] . ولكن سوجر كان رئيس وزراء لا بد له أن يحيط نفسه بمظاهر الأبهة والفخامة ليؤثر بذلك فى نفوس الشعب ! أما فى حياته الخاصة فكان يعيش معيشة التقشف والبساطة ، فى خلوة متواضعة مراعياً جميع قواعد طائفته بقدر ما تمكنه من ذلك واجباته العامة . وكان بطرس المبجل رجلا صالحاً ولكنه عجز رغم جهوده المتكررة عن أن يحول دون ازدياد الثروة الجماعية فى الأديرة التابعة لدير كلونى — وهى التى كانت من قبل تتزعم حركة الإصلاح — إلى حد أمكن الرهبان من أن يعيشوا عيشة البطالة الموهنة للقوى وإن كانوا أفراداً لا يملكون شيئاً .

إن الأخلاق تفسد كلما زاد الثراء ، وفطرة الإنسان تظهر كلما أمكنتها موارده من الظهور ، وفى كل جماعة كبيرة أيا كان نوعها يوجد أفراد غرائزهم أقوى من ايمانهم . ولقد ظلت كثرة الرهبان مستمسكة بالقواعد التى ارتبطت بها وفية لها ، ولكن أقلية منهم أخذت تنظر إلى العالم وإلى شئون الجسم نظرة أكثر ليناً . وكان رئيس الدير فى كثير من الأحيان يعينه سيد إقطاعى أو ملك ويختاره من طبقة تعودت الراحة ؛ ولم يكن هؤلاء الرهبان يتقيدون بقيود الأديرة ، فكانوا يستمتعون بالصيد ، والقنص ، وألعاب الفروسية ، وينغمسون فى السياسة ؛ وسرت عدواهم إلى الرهبان أنفسهم . وها هو ذا جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis يصور لنا حياة رئيس دير إفشام Evesham بصورة مروعة فيقول : « لم يكن أحد بمنجاة من فجوره » ، وكان جيرانه يخصون له ثمانية عشر ولداً ؛ وكان لابد من خلعه آخر الأمر[١١] . وأصبح رؤساء الأديرة المنكبّون على مباهج الدنيا ، السمان ، الأغنياء ، الأقوياء ، هدفاً لسخرية الشعب وتشهير الأدباء ، فكان أقسى ما كتب من الهجاء وأبعده عن المعقول وصفاً لرئيس دير

بقلم ولترماب Walter Map[١٢] . ومن الأديرة ما اشتهر بطعامه الشهى وخمره . على أننا يجب ألا ننكر على الرهبان قليلا من الهناءة ، وفى وسعنا أن ندرك مقدار مللهم من الخضر ، واشتياقهم إلى اللحوم ؛ ولا يسعنا إلا أن نعطف على ثرثرتهم ، وشجارهم ، ونومهم وقت الصلاة من حين إلى حين[١٣] .

ولقد استخف الرهبان ، وهم يقسمون بأن يبقوا عزاباً ، بقوة الغريزة الجنسية التى يستثيرها مراراً وتكراراً ما يشاهدون من مناظر وأمثلة من غير رجال الدين . ويروى قيصريوس الهيستر باخى قصة تتكرر كثيراً فى العصور الوسطى ، عن رئيس دير وراهب شاب خرجا راكبين معاً . ووقعت عينا الشاب على النساء للمرة الأولى فسأل رئيس الدير : « من هؤلاء ؟ » فأجابه « هؤلاء شياطين » فرد عليه الراهب بقوله : « لقد كنت أظنهم أجمل من رأيت فى حياتى كلها »[١٤] . ويقول الزاهد بطرس داميان فى آخر أيام حياته الورعة المريرة :

فى وسعى وأنا الآن رجل طاعن فى السن أن أنظر وأنا آمن إلى وجه ذابل مجعّد لامرأة عجوز شمطاء عمشاء العينين . أما من هنّ أجمل منها وجهاً وأكثر زينة فإنى أغضّ طرفى عنهن وأحذرهن كما يحذر الصبيان النار . ويلاه أيها القلب المفجوع ! — الذى لا يستطيع الاحتفاظ بأسرار الكتاب المقدس التى قرأتها من أولها إلى آخرها مائة مرة ، ثم لا تنمحى منه صورة لم أرها إلا مرة واحدة[١٥] .

وكانت الفضيلة تبدو لبعض الرهبان كأنها صراع نفسانى بين المرأة والمسيح ، ولم يكن تشهيرهم بالنساء إلا جهوداً يبذلونها لإماتة شعورهم بمفاتنهن ، كما كانت أحلامهم الصالحة التقية فى بعض الأحيان يرطبها رضاب الشهوة ، وكثيراً ما كانوا يعبّرون عن رؤاهم القدسية الروحية بعبارات مستعارة من العشق الآدمى[١٦](*) . وكانت قصائد أُوفد من الأشعار المحبوبة فى بعض الأديرة ،

(*) وإنا لنجد هذا بعينه فى أشعار الصوفية المسلمين . (المترجم)

ولم تكن مؤلفاته فى فن الحب بأقل منها تداولا بين الرهبان(١٧) . وكانت التماثيل المقامة فى بعض الكنائس الكبرى ، والنقوش المحفورة فى أثاثها ، بل الرسوم المصورة فى بعض الكتب المقدسة نفسها ، تمثل عبث الرهبان والراهبات — تمثل خنازير فى ثياب الرهبان ، وأثواب الدير بارزة فوق أعضاء التذكير المنتصبة ، والراهبات يعشن مع الشياطين(١٨) . ويمثل نقش بارز فوق مدخل يوم الحشر فى كنيسة ريمس شيطاناً يجرّ الرجال الآثمين إلى الجحيم ، ومن بينهم أسقف على رأسه تاج الأسقفية . وقد سمح رجال الكنيسة فى العصور الوسطى — ولعلهم كانوا من غير الرهبان الذين يحسدون هؤلاء على ما هم فيه من نعيم — سمحوا بأن تبقى هـذه الرسوم الهزلية فى أماكنها ؛ ولكن رجال الدين هذه الأيام رأوا من الخير إزالة الكثرة الغالبة منها . ولقد كانت الكنيسة نفسها أقسى من وجه النقد إلى آثام رجالها ، وقامت طائفة متتابعة من المصلحين الدينيين تبذل ما وسعها من الجهد لكى تعيد الرهبان ورؤساء الأديرة إلى المثل العليا التى جاء بها المسيح .

الفصل الثانى

القديس برنار

عمت العالم المسيحى فى أواخر القرن الحادى عشر ، وفى نفس الوقت الذى تطهرت فيه البابوية ، وامتلأت القلوب تحمساً للحرب الصليبية الأولى ، حركة من الإصلاح الذاتى تحسنت بسببها أحوال رجال الدين غير الرهبان ، وقامت فى أثنائها طوائف من الرهبان جديدة أخذت نفسها بقواعد الأوغسطين والبندكتيين الصارمة . فقد حدث فى وقت غير معروف قبل عام ١٠٣٩ أن أسّس القديس يوحنا جلبرتس St. John Galbertus[١٩] طائفة من الفلمبروزا Vallombrosa فى « الوادى الظليل » المسمى بهذا الاسم فى إيطاليا ، وبدأ فيه نظام الإخوة العلمانيين الذى وطدت دعائمه فيما بعد طوائف الرهبان المتسولين . وأهاب المجمع الرومانى المقدس الذى عقد فى عام ١٠٥٩ برجال الدين الذين يقتسمون أعمال الكنيسة وموارداها أن يعيشوا جماعة ، وأن تكون أملاكهم مشاعة بينهم كما كان شأن الرسل الأولين . ولم يستجب بعضهم إلى هـذا النداء وبقوا « كهنة علمانيين » ؛ واستجاب له كثيرون منهم ، واتبعوا قاعدة رهبانية يعزونها إلى القديس أوغسطين ، وكوّنوا من أنفسهم جماعات شبه رهبانية تعرف فى مجموعها باسم « الكهنة الأوغسطين أو الأوسطين Austins »[*] . وأنشأ القديس برونو St. Bruno الكولونى فى عام ١٠٨٤ ، من بعد أن رفض أن يكون رئيس أساقفة ريمس ، طائفة الكرثوزيين Corthusians ، وذلك بأن أسّس ديراً فى

(*) يجب ألا يخلط بينهم وبين الإخوان الأوغسطين أو الأوسطين الذى أنشأهم الرهبان فى تسكانيا عام ١٢٥٦ .

بقعة منعزلة تدعى كارتريز Chartreuse فى جبال الألب بالقرب من جرينوبل Grenoble ؛ وأنشأ غيره من الأتقياء الصالحين وحدات كرثوزية فى أماكن منعزلة بعد أن سئموا ما يسود العالم من نزاع وما يتصف به رجال الدين من تهاون . وكان كل راهب فى هذه الأماكن يعمل ، ويطعم ، وينام ، فى خلوته الخاصة المنعزلة ، ويعيش على الخبز واللبن ، ويلبس ثياباً من شعر الخيل ، ويكاد يلازم الصمت على الدوام . وكانوا يجتمعون معاً ثلاث مرات كل أسبوع للقيام بمراسم القداس ، وصلاة الغروب ، وصلاة منتصف الليل ؛ وفى أيام الآحاد ، والأعياد ينطلقون فى الحديث ويُطعمون جماعة . وكانت هذه الطائفة أشد طوائف الرهبان صرامة ، وظلت ثمانية قرون كاملة تأخذ نفسها بقواعدها الأصلية وفيّة لها أشد الوفاء .

وأنشأ ربرت المولسميسى Robert of Molesmes فى عام ١٠٩٨ بيت رهبنة جديد فى مكان برّى يدعى سيتو Citeaux قريب من ديجون Diion ، وذلك بعد أن أعيته الحيل لإصلاح أديرة البندكتيين المتفرقة التى كان هو رئيساً عليها ، واشتق من لفظ سيتو اسم الرهبان السسترسيين كما اشتق من لفظ كارتريز اسم الرهبان الكرثوزيين . وأعاد ستيفن هاردنج من دورسسترشير Stephen Harding of Dorsestershire تنظيم هذا الدير ووسعه ، وأنشأ له عدة فروع ، ووضع **عهد الحب** Carta caritatis ليضمن به التعاون السلمى الموحّد بين سيتو والبيوت السسترسية المختلفة . وعادت مبادئ البندكتيين إلى كل ما كانت عليه من صرامة ، فكان الفقر التام أهم مستلزماتها ، وامتنع الأعضاء عن أكل اللحم بكافة أنواعه ، وحيل بينهم وبين التعليم ، وحرم عليهم قرض الشعر ، وأمروا أن يتجنبوا جميع مُظاهر الأبهة فى الملابس الدينية ، والآنية ، والأبنية . وحتم على كل راهب قوى الجسم أن يشترك فى الأعمال اليدوية فى الحدائق والمصانع التى تجعل الدير مستقلا عن العالم الخارجى ، فلا يكون لراهب ما

حجة فى مغادرة ديره . وامتاز السسترسيون عن جميع الطوائف الأخرى ، رهبانية كانت أوغير رهبانية ، بنشاطهم وحذقهم فى الأعمال الزراعية ، وأنشأوا مراكز جديدة لطائفتهم فى الأصقاع غير المسكونة ، وجففوا المستنقعات ، وقطعوا أشجار الغياض والغابات ليفسحوا مكاناً للزراعة ، وكان لهم فضل كبير فى استعمار ألمانيا الشرقية وإصلاح الأضرار التى ألحقها وليم الفاتح بإنجلترا . وكان يساعد الرهبان السسترسيين فى هذه الجهود التى يبذلونها فى سبيل الحضارة إخوان علمانيون *مهتدون* نذروا أن يبقوا عزاباً ، صامتين ، أُمِيين[٢٠] ، يعملون زرّاعاً أو خدماً نظير الطعام والملبس والمسكن[٢١] .

وبعثت هذه الصرامة الخوف فى قلوب من يريدون الانضمام إلى هذه الطائفة ، ولهذا كان نمو هذه الجماعة القليلة بطيئاً ، ولولا ما بعثه القديس برنار فى الطائفة الجديدة من حماسة قوية لقضى عليها فى مهدها .

وُلد القديس برنار بالقرب من ديجون (١٠٩١) من أسرة عريقة تنتمى إلى طبقة الفرسان ، وكان فى صباه شاباً حيياً تقياً ، يؤثر العزلة ، ولم يجد راحة فى العالم الدنيوى ، فاعتزم أن يدخل الدير ، وكأنما أراد الرفقة فى الوحدة ، فأخذ ينشر دعاوة قوية موفقة بين أهله وأصدقائه ليدخلوا معه ديرسيتو . ويحدثنا المؤرخون أن الأمهات والفتيات الصالحات للزواج كانت ترتعد فرائصهن حين يقترب منهن ، خشية أن يغرى أبناءهن أو عشاقهن بالتزام العفة ، ولكنه نجح على الرغم من دموعهن . ولما أن قبل فى دير سيتو (١١١٣) جاء معه بتسعة وعشرين ممن يريدون دخول الدير ، ومنهم إخوة له ، وأحد أعمامه ، وطائفة من أصدقائه ؛ وأفلح فيما بعد فى إقناع أمه وأخته بأن تترهبا ، وأقنع أباه أيضاً بأن يترهب بعد أن توعده بأنه « إن لم يكفّر عن ذنوبه فسيحترق إلى أبد الدهر . . وينبعث منه الدخان والرائحة الكريهة »[٢٢] .

وأعجب استيفن هاردنج من فوره بتقوى برنار ونشاطه إعجاباً حمله على أن

يرسله (١١١٥) على رأس ثلاثة عشر راهباً لينشئ بيتاً سسترسيا جديداً يكون هو رئيسه . واختار برنار لبيته الجديد بقعة شَجِرة على بعد تسعين ميلا من سيتو تعرف باسم **الوادى المضيء** Clara vallis أو Clairvaux ، ولم يكن فى هذا المكان مسكن ولم يكن فيه قط إنسان . وكان أول عمل قامت به الفئة المتآخية أن بنَت بأيديها « ديرها » الأول — وهو بناء خشبي يحوى تحت سقف واحد مصلى ، ومطعما ، وفى أعلاهما مكان للنوم يَصِلون إليه بسلم خشبي . وكانوا ينامون فى صناديق نثرث عليها أوراق الأشجار ، ولم تكن النوافذ أكبر من رأس الرجل ولم يكن على الأرض شيء . وكان طعامهم مقصوراً على الخضر إلا سمكة يطعمونها من حين إلى حين ؛ ولم يكونوا يطعمون خبزاً أبيض ، أو توابل ، وقلما كانوا يشربون نبيذاً ؛ فكان هؤلاء الرهبان الحريصون على دخول الجنة يأكلون كما يأكل الفلاسفة الراغبون فى طول العمر . وكانوا يعدون طعامهم بأيديهم ، فيتناوبون طهوه . وكان من القواعد التى وضعها برنار ألا يبتاع الدير أملاكا ، وألا يكون له إلا ما يوهب ، وكان يرجو ألا يكون له من الأرض أكثر مما يستطيع الرهبان العمل فيه بأيديهم وبأدواتهم البسيطة . وأخذ برنار وإخوانه المتزايد عددهم يعملون فى هذا الوادى الهادئ فى صمت وقناعة بعيدين عن « زوبعة العالم » يقطعون أشجار الغابة ، ويزرعون ، ويحصدون ، ويصنعون أثاثهم بأيديهم . ويجتمعون فى أوقات الصلاة ليرتلوا الأناشيد بغير أرغن ، ويتلوا مزامير اليوم وترانيمه . ويصفهم وليم السانت تيرىّ William of St. Thierry بقوله : « كلما أنعمت النظر فيهم زاد يقينى أنهم أعظم أتباع المسيح كمالا . . . لا ينقصون إلا قليلا عن الملائكة ، ولكنهم أرقى كثيراً من الآدميين »[٢٣] . وانتشرت أنباء هذا السلام المسيحى وهذا الاستقلال الذاتى حتى كان فى كليرفو قبل موت برنار سبعمائة من الرهبان . وما من شك فى أنهم كانوا سعداء فى ذلك المكان ، لأن الذين بعثوا من هذه البيئة الشيوعية ليكونوا رؤساء أديرة ، **أو أساقفة** ،

أو مستشارين ، كانوا كلهم تقريباً يتوقون للعودة إليها ؛ وكان برنار نفسه — وقد عرضت عليه الكنيسة أرقى مناصبها ، وذهب إلى أراض كثيرة بناء على طلبها — يحن دائما للعودة إلى صومعته فى كليرفو « حتى تسبل أيدى أبناء عينىَّ ، وحتى يوارى جسدى فى كليرفو بجوار أجساد الفقراء » .

وكان رجلا متوسط الذكاء ، ثابت اليقين ، ماضى العزيمة ، متناسق الصفات الخلقية ، ولم يكن يعنى بالعلم ولا بالفلسفة لأنه يحس أن عقل الإنسان وهو جزء من الكون متناه فى الصغر عاجز عن الحكم على الكون ، لا يستطيع الادعاء بأنه يفهمه ؛ وكان يدهش من كبرياء الفلاسفة السخيف وهم ينطقون بهذرهم عن طبيعة الكون ، وأصله ، ومصيره . وقد هاله ما يراه أبلار من تحكيم العقل فى الدين ، وقاوم هذه النزعة العقلية لأنها تجديف وقحة . وكان يفضل أن يمشى فى ضياء معجزات الوحى غير سائل أو متشكك ، مفضلا هذا عن محاولة فهم العالم . وكان من رأيه أن الكتاب المقدس هو كلام الله ، وإلا كانت الحياة فى رأيه بيداء من الشك الحالك الظلام ، وكلما أوغل الدعوة إلى هذا الإيمان الشبيه بإيمان الأطفال ، ازداد يقينه بأن هذا هو الطريق السوى . ولما أن جاءه أحد رهبانه واعترف له فى رهبة وفزع أنه لا يستطيع الإيمان بقدرة القس على أن يحول خبز القربان إلى جسم المسيح ودمه ، لم يلمه برنار على ما قال ، وأمره مع ذلك أن يشترك فى العشاء الربانى ، وقال له : « اذهب واشترك فيه بإيمانى أنا » ؛ ويؤكد لنا الرواة أن إيمان برنار فاض على المتشكك وأنجى روحه[٢٥]. وكان فى وسع برنار أن يكره ويطارد حتى الموت ، أو ما يقرب من الموت ، الضالين أمثال أبلار أو آرنلد البريشيائى لأنهم أضعفوا كنيسة تبدو له رغم أخطائها وعيوبها مطية المسيح نفسها ، كما كان فى وسعه أن يحب برقة لا تكاد تقل عن رقة العذراء التى كان يعبدها بغيرة منقطعة النظير . ورأى يوماً لصا يساق إلى المشنقة فشفع له عند كونت شمپانيا ووعده أن يوقع عليه عقاباً أقسى من الموت

الذى لا يقاسيه إلا لحظة وجيزة[٢٦] . وكان يعظ الملوك والبابوات ، ولكنه يكون أكثر رضاً عن نفسه حين يعظ الفلاحين والرعاة فى واديه . وكان يتسامح فى أخطائهم ، ويهديهم بما يضربه لهم بنفسه من مثل صالح ، وينال حبهم الصامت ويبادلهم حباً بحب . ووصل فى تقواه إلى حد الزهد المنهك للقوة ، وقد أكثر من الصوم حتى اضطر رئيسه فى سيتو أن يأمره بتناول الطعام . وظل ثمانية وثلاثين عاماً يعيش فى صومعة واحدة ضيقة فى كليرفو ، على فراش من ورق الشجر ، وليس فيها مقعد إلا حفرة فى الجدار[٢٧] . وكانت طيبات العالم جميعها وما فيه من أسباب الراحة ، تبدو له وكأنها لا شيء إذا قيست إلى التفكير فى المسيح ووعده . وكتب وهو فى هذه النشوة عدة ترانيم غاية فى البساطة والرقة الأخّاذة بمجامع القلوب :

أيها المسيح يا صاحب الذكرى الحلوة ،

هب القلب البهجة الحقة ؛

إن أحلى من الشهد ومن الأشياء جميعها

مشهده الحلو ،

وليس فى كل ما يُغَنَّى شيء أجمل من ذكر عيسى ابن الله

ولا فيما يسمع شيء أحسن وقعاً على الأذن منه

ولا فيما يفكر فيه العقل أحلى منه .

أى عيسى يا أمل التائبين

ما أرقّ قلبك على المتسوِّلين !

وما أقربك لطالبيك !

تُرى ماذا تكون لمن يلقونك ؟

وقلما كان يعنى بغير الجمال الروحى رغم إدراكه جمال اللفظ ، فكان يعطى

عينيه خشية أن تسرفا فى الاستمتاع الحسى بجمال بحيرات سويسرا[٢٩] . وكان ديره عارياً من جميع الزينة عدا صورة المسيح مصلوباً ، وكان يلوم دير كلونى لكثرة ما ينفقه من المال فى بناء الأديرة التابعة له وزينتها ، ويقول فى هذا : « إن الكنيسة تتلألأ جدرانها وتغلّ يدها عن فقرائها ، وتطلى حجارتها بالذهب وتترك أبناءها عراة ، وتفتن عيون الأغنياء بالفضـــة التى تأخذها من البائسين »[٣٠] . وكان يشكو من أن دير القديس دنيس العظيم غاص بالفرسان المتكبرين المدرعين بدل العبّاد السذج ؛ ويسميه : « حامية عسكرية ، ومدرسة الشيطان ، ومعشش اللصوص »[٣١] . وتأثر سوجر بهذا اللوم ، فأصلح عادات كنيسته ورهبانه ، وعاش حتى استحق ثناء برنار .

ولم يكن إصلاح الأديرة الذى سطع ضياؤه من كليرفو ، ورفع مستوى رجال الدين بترقية رهبان برنار إلى مراتب الأساقفة ورؤساء الأساقفة ، لم يكن هذا إلا بعض ما أحدثه ذلك الرجل ، الذى لم يكن يطلب شيئاً غير الخبز ، من الأثر فى جميع الطبقات وفى خلال نصف القرن الذى عاشه . وجاء لزيارته الأمير هنرى الفرنسى أخو الملك وتحدث إليه برنار ، وقبل أن ينقضى اليوم كان هنرى راهباً يغسل الصحاف فى كليرفو[٣٢] . وقد استطاع بعظاته — وقد أوشكت لفصاحتها وجزالة لفظها أن تكون شعراً — أن يؤثر فى نفوس كل من سمعه ؛ كما استطاع برسائله — وهى آيات خالدة فى الدعوة الحماسية الحارة — أن يؤثر فى المجالس ، والأساقفة ، والبابوات ، والملوك ؛ وأمكنه باتصاله الشخصى أن يشكل سياستى الكنيسة والدولة . وأبى أن يكون أكثر من رئيس دير ، ولكنه رفع البابوات إلى عروشهم وأنزلهم عنها ، ولم يكن الناس يستمعون إلى حبر من الأحبار بإجلال وخشوع أكثر مما يستمعون بهما إليه .

وقد خرج من صومعته ليقوم بنحو اثنتى عشرة مهمة دبلوماسية عالية ، كانت فى العادة بناء على طلب الكنيسة . ولما أن اختارت طائفتان متنازعتان

أنكليتس الثانى وإنوسنت الثانى للجلوس على كرسى البابوية (١١٣٠) أيد برنار إنوسنت ؛ ولما أن استولى أنكليتس على رومة دخل برنار إيطاليا وأثار بقوة شخصيته وخطبه الحماسية مدن لمبارديا لتأييد إنوسنت ؛ وسكرت الجموع بخطبه وتقاه فانكبت عليه تقبل قدميه ومزقت مئزره إرباً اتخذتها مخلفات مقدسة تورثها أبناءها من بعدها . وأقبل عليه المرضى فى ميلان ، وأعلن المؤمنون المصابون بالصرع والشلل وغيرهما من الأمراض أنهم شفوا من أمراضهم بلمسه . ولما عاد إلى كلبرقو بعد انتصاراته الدبلوماسية جاءته جموع الفلاحين من الحقول والرعاة من أعالى التلال ، يطلبون إليه أن يباركهم ، فلما تلقوا منه هذه البركة عادوا إلى كدحهم مرفوعى الرأس راضين .

وقبل أن يتوفى برنار فى عام ١١٥٣ كان عدد أديرة السسترسيين قد زاد من ثلاثين ديراً فى عام ١١٣٤ (وهى السنة التى مات فيها استيفن هاردنج) إلى ٣٤٣ ديراً وانضم إلى هذه الطائفة عدد كبير من الناس متأثرين بتقواه وقوته ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد أفرادها ستين ألفاً يقيمون فى ٦٩٣ ديراً . ونشأت طوائف أخرى من الأديرة فى القرن الثانى عشر ، فأنشأ ربرت الأبرســـولى Robert of Abrissol حوالى عام ١١٠٠ طائفة الفنتفرول Fontevroult فى أنجو ، وفى عام ١١٢٠ تخلى القديس نربير Norbert عن ثروة عظيمة آلت إليه وأنشأ طائفة « رهبان المرعى الموعود »(*) النظامية فى بريمنتريه Premontré بالقرب من ليون Leon . وفى عام ١١٣١ أنشأ القديس جلبرت طائفة

(*) Premonstrateusian وتسمى أيضا طائفة النربيرتيين نسبة إلى منشئها . أما تسميتها بطائفة المرعى الموعود فسببها كما يقول نربير أن المكان الذى نشأوا فيه قد حدد له فى رؤيا ظهرت له وهو فى غابة كوسى Coucy بالقرب من ليون Leon فى مقاطعة ابن Aisne .

(المترجم)

السمبرنجهام Sempringham الجلبرتيين الإنجليز على غرار طائفة فنترقول . وفى عام ١١٥٠ سار بعض الزهاد الفلسطينيين على سنة القديس باسيلى وانتشروا فى جميع أنحاء فلسطين . ولما استولى المسلمون على فلسطين هاجر هؤلاء الرهبان « رهبان الكرمل » إلى قبرص ، وصقلية ، وفرنسا ، وإنجلترا . وفى عام ١١٩٨ صدق إنوسنت الثالث على قانون طائفة الرهبان « الثالوثيين Trinitarians » ، وحضهم على افتداء المسيحيين الذين وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين . وكانت هذه الطوائف الجديدة مشعلا أضاء ظلمات الكنيسة المسيحية .

وأخذت حركة الاصلاح فى الأديرة التى بلغت ذروتها على يد القديس برنار تضعف فى خلال القرن الثانى عشر . فقد كانت الطوائف الحديثة النشأة تحافظ على مبادئها الصارمة بإخلاص معقول ، غير أنه لم يكن من المستطاع أن يوجد الكثيرون من الناس الذين يستطيعون الصبر على هذا النظام الصارم فى ذلك العهد السريع الخطى ؛ فأثرى السسترسيون — ومنهم أتباع برنار نفسه فى كليرفو — على مر الزمن بما انهال عليهم من هدايا ذوى الآمال ، واستطاع الرهبان بفضل الأعيان الموقوفة من « التائبين » أن يضيفوا إلى طعامهم اللحم وكثيراً من النبيذ(٣٣) ، وعهدوا بجميع الأعمال اليدوية إلى إخوانهم العلمانيين ؛ ولما مضت أربع سنين على موت برنار ابتاعوا عدداً من الأرقاء المسلمين(٣٤) ، وكانت لهم تجارة واسعة تدر عليهم أرباحاً طائلة فى منتجات صناعاتهم المشاعة ؛ وأثاروا حقد نقابات أرباب الحرف لأنهم كانوا معفين من العوائد المفروضة على نقل البضائع(٣٥) . ولما ضعف إيمان الناس على أثر إخفاق الحملات الصليبية قل عدد الطلاب الجدد وانحطت بسبب هذا الضعف أخلاق جميع طوائف الرهبان ،

ولكن المثل الأعلى القديم القاضى بأن يحيا الرهبان كما كان يحيا الرسل حياة شيوعية خالية من الملك الفردى لم يمت ، بل بقى فى نفوس الآلاف من الناس الاعتقاد الراسخ بأن من واجب المسيحى الصادق أن يبتعد عن الثروة والسلطان ، وأن يحافظ أشد المحافظة على السلام . ثم ظهر فى تلال إمبريا Umbria بإيطاليا فى أوائل القرن الثالث عشر رجل أعاد تلك المثل العليا القديمة إلى سابق قوتها ، وذلك ببساطته ، وطهارته ، وتقواه ، وحبه ، وأدهش الناس بهذه الصفات حتى ظنوا أن المسيح قد ولد من جديد .

الفصل الثالث

القديس فرانسس(*)

وُلد چيوڤنى ده برنادون Giovanni de Bernadone فى أسيسى Assisi عام ١١٨٢ . وكان أبوه سرپيترو ده برنادون Ser Pietro de Bernadone من أثرياء التجار ، ذا تجارة واسعة مع پروڤانس ؛ وفيها أحب فتاة فرنسية تدعى پيكا Pica وتزوجها وجاء بها إلى أسيسى . ولما عاد من رحلة أخرى ووجد أنها أنجبت له ولدا بدّل اسم الطفل فجعله فرانسسكو Francesco أى فرانسس ، ويبدو أن ذلك كان تحية منه لپيكا . وشب الطفل وترعرع فى أجمل صقع فى إيطاليا ، ولم يفقد قط حبه لمناظر أمبريا الجميلة وسمائها الصافية . وتعلّم من والديه اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وأخذ اللغة اللاتينية عن قس الأبرشية ، ولم يكن له بعدئذ نصيب من التعليم المنظم ، ولكنه سرعان ما انتظم فى عمل أبيه ، وأغضب سرپيترو بما أظهره من قدرة على صرف المال تفوق قدرته على كسبه . فقد كان أغنى شباب البلدة وأسخاهم يداً ، يجتمع حوله أصدقاؤه يطعمون معه ويشربون ويغنون أغانى الشعراء الغزلين . وكان فرانسس بين الفينة والفينة يرتدى حلة المنشدين الجائلين المتعددة الألوان(٣٦) . وكان شابا وسيما ، أسود العينين ، فاحم لون الشعر ، صبوح الوجه ، جميل الصوت . ويقول المترجمون الألون له إنه لم تكن له قط صلة بالنساء ، وإنه لم يعرف إلا امرأتين معرفة لا تتجاوز النظر

(*) إن بعض ما كتب عن فرانسس تاريخ صحيح وبعضه قصص . وإذ كان بعض القصص من أروع الآيات الأدبية التى خلفتها العصور الوسطى فقد أثبتنا هذا البعض فى الصفحات التالية ونبهنا القارئ إلى طبيعته هذه فى كل مرة . ونقول هنا من بادئ الأمر إن معظم « زهيرات القديس فرانسس Fiovetti » و « مرآة الكمال Speculum Pertectiones » من القصص الموضوعة . وعلى هذا النحو يجب أن يفسر ما نقتبسه من هذين الكتابين .

إليهما[٢٧] ، ولكن هذا بلا ريب يظلم فرانسس بعض الظلم . ولعله سمع من أبيه فى تلك السنين التى يتشكل فيها خلقه شيئا عن الضالين الإلبجنسيين والولدنسيين فى جنوبى فرنسا ، وعن إنجيلهم الجديد إنجيل الدعوة إلى الفقر

وحارب فى عام ١٢٠٢ فى جيش أسيسى ضد پروجيا Perugia ، وأسر ، وقضى فى الأسر سنة شغلها كلها بالتأمل العميق . وفى عام ١٢٠٤ تطوع فى جيش البابا إنوسنت الثالث . وبينا هو طريح الفراش فى إسپوليتو ينتفض جسده من الحمى إذ خيل إليه أن صوتاً يناديه : « لم تهجر الإله إلى الخادم ، والأمير إلى تابعه ؟ » فسأل هو ذلك الصوت : « ربّاه ماذا تريدنى أن أفعل ؟ » فأجابه الصوت : « عد إلى موطنك ، وهناك سيقال لك ماذا تفعل »[٢٨] . فما كان منه إلا أن ترك الجيش وعاد إلى أسيسى ، ومن ذلك الوقت أخذ اهتمامه بتجارة أبيه يقلّ واهتمامه بالدّين يزيد . وكان بالقرب من أسيسى مصلى صغيرة للقديس دميان . وبينا كان فرانسس يصلى فيها ذات يوم من أيام شهر فبراير عام ١٢٠٧ إذ خيل إليه أنه يسمع المسيح يتحدث إليه من المذبح ، ويتقبل حياته وروحه قرباناً له . وأحس من تلك اللحظة أنه موهوب إلى حياة جديدة ، فأعطى قس المصلى كل ما معه من المال وعاد إلى منزله . والتقى ذات يوم بشخص مصاب بالجذام ففر منه مشمئزاً ، ثم لام نفسه لمدم إخلاصه للمسيح ، وعاد أدراجه وأفرغ ما كان فى كيسه من النقود فى يد المجذوم وقبّل يده ، ويقول لنا هو إن هذا العمل كان بداية عهد جديد فى حياته الروحية[٢٩] . وأخذ من ذلك الحين يزور مساكن المجذومين ويتصدق عليهم .

وقضى بعد قليل من ذلك الحادث عدة أيام فى المصلى أو بالقرب منها ، ويبدو أنه لم يكن يأكل فى تلك الأيام إلا القليل الذى لا يغنى من جوع ، فلما ظهر مرة أخرى فى أسيسى كان جسمه قد ضعف وهزل ، ولونه قد امتقع ، وثيابه قد تمزقت ، وعقله قد تحير ، حتى أخذ الأطفال فى الميدان العام يصيحون

« بزو ، بزو ! pazzo ! pazzo, المجنون ، المجنون ! » وهناك عثر عليه أبوه ، وسماه بالشاب الذى ذهب نصف عقله ، وجره إلى منزله ، وأغلق عليه حجرة ضيقة . ولما أن أطلقته أمه من حبسه عاد مسرعاً إلى المصلى ، فلحق به أبوه الغاضب ، وأنبه لتعريضه أسرته للسخرية ، ولامه لأنه لم يفد شيئاً من المال الذى أنفقه على تربيته ، وأمره أن يخرج من البلدة التى هو فيها ؛ وكان فرانسس قد باع كل ممتلكاته الشخصية لينفق من ثمنها على المصلى ، فلما سمع هذا القول من أبيه أعطاه ما كان معه من ثمنها ، وقبله منه أبوه ، ولكنه لم يعترف لوالده بحقه فى أن يأمر شخصاً هو وقتئذ ملك للمسيح . ولما استدعى للمثول بين يدى محكمة الأسقف فى ميدان القديسة مارية مجيورى ، مثل أمامها فى خشوع وحوله جمع حاشد ينظر إليه . وقد خلد چيوتو هذا المنظر فى صورة له ذات روعة . ووثق الأسقف بما قطعه على نفسه من وعد وأمره أن يتخلى عن جميع أملاكه . وآوى فرانسس إلى حجرة فى قصر الأسقفية ، وما لبث أن عاد عارياً كما ولدته أمه ، وألقى أمام الأسقف بثيابه المحزومة وما كان باقيا معه من نقود قليلة وقال : « لقد ظللت حتى هذه الساعة أدعو پيترو برنادون أبى ، أما الآن فإنى أحب أن أكون خادماً لله ، ولهذا فإنى أرد إليه هذا المال . . . هو وثيابى وكل ما حصلت عليه منه ، لأنى من هذه الساعة لن أنطق بغير « أبانا الذى فى السموات »(٤٠) . وأخذ برنادون الثياب وغطى الأسقف فرنسس المرتجف بمئزره ، وعاد فرانسس إلى مصلى القديس داميان ، ونسج لنفسه ثوبا من أثواب النساك ، وأخذ يسأل الناس طعامه من باب إلى باب ، وشرع يبنى بيديه المصلى المتصدعة ، وجاء بعض أهل القرية يساعدونه ، وكانوا يغنون جميعاً وهم يعملون .

وبينا كان يستمع إلى القداس فى شهر فبراير من عام ١٢٠٩ أثرت فى نفسه العبارات التى كان القس يتلوها من تعاليم المسيح إلى الرسل : وفيها « أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات ؛ اشفوا مرضى ، طهروا برصاً ،

أقيموا موتاً ، أخرجوا شياطين ، مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا ، لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم ، ولا مزوداً فى الطريق ولا ثوبين ، ولا أحذية ولا عصا » (متّى ١٠ : ٧ — ١٠) .

وخيل إلى فرانسس أن المسيح نفسه هو الذى يتكلم وأنه يتكلم إليه مباشرة ، وصمم على أن يطيع هذه الألفاظ وينفذها بنصها — أن يدعو إلى ملكوت السموات ، وألا يقتنى شيئاً ، وأن يرجع إلى الوراء خلال المائتين والألف من الأعوام التى أخفت عن الناس صورة المسيح ، وأن يعيد تشكيل حياته على غرار هذا المثل القدسى .

وهكذا وقف فى ربيع ذلك العام فى ميدان أسيسى متحدياً سخرية الساخرين جميعها يدعو إلى إنجيل الفقر وإلى المسيح . واشمأزت نفسه مما كان سائداً فى هذا العصر من سعى لكسب المال بالحق أو بالباطل ، وروعه ما رآه من ترف بعض رجال الدين وأبهتهم ، فأخذ يندد بالمال نفسه ويقول إنه هو الشيطان وهو اللعنة ؛ وأمر أتباعه أن يجتنبوه كما يجتنبوا الرجس[٤١] ؛ وأهاب بالرجال والنساء أن يبيعوا كل ما يملكون وأن يهبوا ثمنه للفقراء . واستمعت إليه جماعات قليلة فى دهشة وإعجاب ، ولكن الكثرة مرت به وحسبته أبله مفتوناً بالمسيح ، ولما قال له أسقف أسيسى الصالح : « يبدو لى أن طريقتك فى الحياة من غير أن تملك شيئاً قاسية صعبة على النفس » أجابه فرانسس بقوله : « مولاى ، إننا إذا كان لنا ملك احتجنا إلى الأسلحة للدفاع عنه »[٤٢] . وتأثرت به بعض النفوس ؛ وعرض عليه اثنا عشر ممن تأثروا به أن يتبعوا تعاليمه ويسيروا على سننه ، فرحب بهم ، ولقنهم الفقرة السالفة الذكر من أقوال المسيح ليتخذوها رسالة لهم وقاعدة يسيرون عليها ؛ ونسجوا لأنفسهم ثياباً سمراء ، وأقاموا لهم أكواخاً من أغصان الأشجار ، ونبذوا هم وفرانسس عزلة الرهبان القديمة ، فكانوا يخرجون كل يوم حفاة ، ليس معهم شىء من المال ، يعظون الناس . وكانوا فى بعض

الأحيان يغيبون عدة أيام، وينامون فى مخازن الدريس، أو مستشفيات المجذومين، أو تحت أبواب الكنائس؛ فإذا عادوا غسل فرانسس أقدامهم وقدم لهم الطعام.

وكانوا يحيون بعضهم البعض، ويحيون كل من يلتقون بهم فى الطريق، التحية الشرقية القديمة: « سلام الله عليكم » ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد أطلق عليهم اسم « فرانسسكان »، فقد كانوا يسمون أنفسهم « الإخوان الصغار Minorites Fratres أو المينوريين Minores ». ذلك أنهم كانوا إخواناً لا قساوسة، ومعنى كونهم صغاراً أنهم أصغر خدام المسيح شأناً، وأنهم لا يمارسون قط سلطاناً، بل يخضعون على الدوام لسلطان من هم أرقى منهم؛ فهم يخضعون لأقل القساوسة درجة، ويقبلون يد أى قسيس يلقونه، ولم يرسم إلا عدد قليل منهم فى الجيل الأول من نشأتهم قساوسة، ولم يرق فرانسس نفسه إلى أكبر من مرتبة شماس، وكانوا فى جماعتهم الصغيرة يخدم بعضهم بعضاً، ويشتغلون بالأعمال اليدوية، ولم يكونوا يسمحون بوجود متعطل منهم، أو يشجعون الدراسة العقلية بينهم، لأن فرانسس لم يكن يرى فى المعلومات الزمنية أية فائدة غير تكديس الثروة أو الجرى وراء السلطان: « وسيجد إخوانى الذين تغويهم الرغبة فى العلم أنهم صفر الأيادى فى يوم المحنة »[٤٣]. وكان يسخر من المؤرخين الذين لا يقومون هم أنفسهم بعمل عظيم، ولكنهم يشرفون لأنهم يسجلون ما يقوم به غيرهم من جليل الأعمال[٤٤]. وقد سبق فرانسس قول جيته إن العلم الذى لا يؤدى إلى العمل باطل مسمم فقال: « ليس للإنسان من العلم إلا القدر الذى يستخدمه فى العمل »[٤٥] ولم يكن واحد من الإخوان يمتلك كتاباً بما فى ذلك كتاب الترتيل نفسه؛ وكانوا فى عظاتهم يلجأون إلى الغناء كما يلجأون إلى الخطابة، بل كانوا يحذون حذو الشعراء المغنين الجائلين فيكونون مطربى الله[٤٦].

وكان الإخوان أحياناً يُسخرمنهم ويُضربون، وتُسرق منهم أثوابهم حتى الثوب الأخير. وقد أمرهم فرانسس ألا يبدوا أية مقاومة. وكان المعتدون

فى كثير من الأحيان يدهشون من احتقار الإخوان للمجد والملك ، وهو احتقار كان يبدو لهم فوق الطاقة البشرية ، ولهذا كانوا يتقدمون إليهم يطلبون الصفح ويعيدون إليهم ما سرقوه(٤٧) . ولسنا نعرف هل هذا المثل الآتى المأخوذ من *زهيرات القديس فرانسس* تاريخ حق أوخيال ، ولكنه فى كلتا الحالين بصوّر نشوة التقوى التى تسرى فى كل ما نسمعه عن القديس :

قال فرانسس فى يوم من أيام الشتاء وهو سائر فى طريقه من پروچيا يعانى الأمرين من برد الشتاء القارس : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان الصغار يضربون أحسن الأمثلة فى الصلاح والتهذيب ، ومع هذا فاكتب إليهم ، ولا تتوان عن تعليمهم ، أن البهجة الكاملة ليست فى هذا » . وبعد أن واصل فرانسس السير فى طريقه بعض الشىء قال : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان الصغار قد ردوا البصر إلى المكفوفين ، وقوّموا المعوجّين ، وأخرجوا الشياطين ، وأعادوا السمع إلى الصم ، ومكنوا العرج من المشى المستقيم . . . وأحيوا من قضوا فى القبر أربعة أيام ، ومع هذا فاكتب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . ثم سار فى طريقه قليلا وصاح بأعلى صوته : « أيها الأخ ليو ، لو أن الأخ الصغير عرف كل اللغات والعلوم ، وجميع الكتب المقدسة حتى استطاع أن يكشف عن الأمور المستقبلة ويتنبأ بها ، بل استطاع أكثر من هذا أن يكشف عن مخبآت الضمائر والنفوس — فاكتب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . . . ومع هذا فقد سار بعدئذ قليلا وصاح قائلا : « أيها الأخ ليو ، إن الأخ الصغير يحذق الوعظ إلى حد يستطيع معه أن يهدى الكفرة إلى دين المسيح — فاكتب : « ليس السرور الكامل فى ذاك » . ولما استمر هذا الطراز من الحديث ميلين كاملين سأله الأخ ليو : . . . « أبى ، بالله قل لى أين يوجد السرور الكامل ؟ » فأجابه فرانسس بقوله : « حين نصل إلى كنيسة مارية الملائكة » (وكانت وقتئذ مصلى الفرانسسكان فى أسيسى) يبللنا المطر ، متجمدين من شدة البرد ، ملطخين

بالوحل ، معذبين من شدة الجوع ، وحين تدق الباب ويقبل البواب ثائراً ويقول : « من أنتما ؟ » فتقول له : « نحن اثنان من إخوانك » فيرد علينا قائلا : « إنكما كاذبان ، بل أنتما وغدان تسيران فى الطرق تخدعان العالم ، وتختلسان صدقات الفقراء . اذهبا ! » ثم لا يفتح لنا الباب ، ويتركنا فى خارجه نعانى آلام الجوع والبرد طوال الليل فى المطر والثلج ؛ فإذا ما تحملنا هذه القسوة صابرين . . . من غير أن نشكو أو نحزن ، ونعتقد فى ذلة وشفقة أن الله هو الذى أنطق البواب بالسخرية منا — ألا أيها الأخ ليو ، اكتب ، هناك السرور الكامل ! وإذا ما واصلنا دق الباب ، وخرج هو وطردنا وهو غاضب ، وسبّنا ولطم خدودنا وقال لنا : « أبْعدا أيها اللصان السافلان ! — فإذا ما تحملنا هذا صابرين يملأ قلبينا الحب والفرح فاكتب أيها الأخ ليو : هذا هو السرور الكامل ! وإذا ما عضنا الجوع وآلمنا البرد فدفعنا الباب مرة أخرى ودعوناه بحب الله أن يفتح لنا . . . فخرج بعصا كبيرة معقدة وقبض علينا من قلانسوتينا ، وألقانا على الأرض ، ودحرجنا على الثلج ، ورض كل عظم من عظامنا بتلك العصا الثقيلة ، فإذا ما فكرنا فى آلام المسيح الرحيم ، وتحملنا هذه الآلام كلها فى صبر وسرور مدفوعين إليها بحب الله — فاكتب أيها الأخ ليو أن هنالك وفى هذا يوجد السرور الكامل »[٤٨] .

وكانت ذكرى حياته المترفة الباكرة تبعث فى نفسه شعوراً بالخطيئة يؤرقه ويقض مضجعه ، وإذا كان لنا أن نصدق ما جاء فى **الزهيرات** فإنه كان فى بعض الأحيان يسائل نفسه فى حيرة هل يغفر له الله ذنوبه ؟ وثمة قصة مؤثرة تقول إنه فى الأيام الأولى من نشأة الطائفة حين لم يكن فى وسعهم أن يجدوا كتاب صلوات يتلون منه أدعيتهم المقدسة ، ارتجل فرانسس وِرداً للتوبة ، وأمر الأخ ليو أن يعيد بعده عبارات تتهم فرانسس بالخطيئة . وحاول ليو أن يعيد التهمة فى كل جملة ، ولكنه وجد أنه لم يكن يكرر التهمة ، بل كان يقول بدلا منها

إن « رحمة الله وسعت كل شيء »[٤٩]. وحدث فى مرة أخرى ، وكان فرانسس قد نقه توًّا من الحمى ، أن طلب أن يُجَرَ وهو عار من الثياب أمام الناس فى سوق أسيسى وأن يلقى أحد الإخوان على وجهه صفحة من الرماد ، ثم قال هو للحاضرين : « إنكم تعتقدون أنى ولى صالح ، ولكنى أعترف لله ولكم أننى فى ضعفى هذا أكلت لحماً وشربت مرق لحم »[٥٠] . وزاد ذلك القول يقين الناس بطهره وقداسته ، ورووا أن أخاً شاباً أبصر المسيح والعذراء يحدثانه ؛ وكانوا يعزون له عدة معجزات ، ويأتون إليه بمرضاهم ومن بهم « مس » ليشفيهم . وأصبحت صدقاته مضرب المثل وموضوع القصص ، فلم يكن يطيق أن يرى أحداً أفقر منه ، وكثيراً ما كان يتصدق على من يمرّ به من الفقراء بالثوب الذى يلبسه حتى كان مريدوه يجدون من أصعب الصعاب أن يبقوه مكتسياً . وتقول **مرآة الكمال** التى هى فى أكبر الظن من نسج الخيال[٥١]:

وبينا هو عائد من سينا Siena إذ التقى فى طريقه برجل فقير ، فقال لزميل من الرهبان : « يجب أن نعيد هذا المئزر إلى صاحبه ، لأنا لم نأخذه إلا عارية حتى نعثر على من هو أفقر منا . . . وإنا إذا لم نعطه من هو أشد حاجة إليه منا عُدَّ هذا منا سرقة » .

وفاض حبه من الآدميين على الحيوان والنبات ، وعلى الجماد نفسه ؛ وتعزو إليه **مرآة الكمال** التى لم تثبت صحتها تسبيحاً للشمس يقول فيه :

حين تشرق الشمس فى الصباح ، يجب على كل إنسان أن يحمد الله الذى خلقها لننتفع بها ... وإذا جن الليل وجب على كل إنسان أن يسبح بحمد الله الذى أمدنا بأختنا النار التى تبصر بها أعيننا ، لأننا جميعاً أشبه بالمكفوفين ، وقد أضاء الله أعيننا بهذين الأخوين .

وكان يعجب بالنار إعجاباً يحمله على التردد فى إطفاء شمعة ؛ لأن النار قد

تعارض فى أن تطفأ . وكان قوى الإيمان بما بينه وبين كل كائن حى من أواشج القربى . وأراد أن « يتوسل إلى الإمبراطور » (فردريك الثانى الذى كان مولعاً بصيد الطير) « لكى يخبره بحق حبه لله ولى أن يضع قانوناً خاصاً يحرم على أى إنسان أن يقبض على أخوتنا القبرات أو يقتلها ، أو يلحق بها أذى ما ، وأن يطلب رؤساء البلديات وعمد البلاد ، وملاك القصور والقرى ، إلى كل رجل أن ينثر الحب فى خارج المدن والقصور فى يوم عيد الميلاد من كل عام حتى تجد أخواتنا القبرات وغيرها من الطير ما تأكله »(٥٢) والتقى مرة بشاب اقتنص بضع قمريات وسار بها إلى السوق . وأقنع فرانسس الشاب أن يعطيه إياها ، وبنى القديسون عشوشاً لها « حتى تثمر وتتضاعف » ؛ وأطاعت القمريات فأثمرت وتضاعفت أضعافاً مضاعفة ، وعاشت بجوار الدير سعيدة بصداقة الرهبان ، وكانت أحياناً تخطف الطعام من المائدة التى يطعم عليها أولئك الرهبان(٥٣) . ونسجت حول هذا الموضوع عشرات من الأقاصيص لتزينه وتجمله ، منها واحدة تقول إن فرانسس خطب فى « أخواتى الصغار من الطير » وهو فى طريقه من كانورا Cannora إلى بيفانيا Bevagna ؛ فنزلت إليه الطيور التى على الأشجار لتستمع إليه ، وظلت ساكتة بينا كان فرانسس يختم عظته :

أخواتى الصغار من الطير ! ما أكثر ما أنتن مدينات به إلى الله خالقكن ، ومن واجبكن أينما كنتن وأنى كنتن أن تحمدنه لأنه وهبكن حلة ثنائية وثلاثية . لقد وهبكن الحرية التى تمكنكن من الذهاب أينما شئتن . . . وفوق هذا فإنكن لا تزرعن ، ولا تحصدن ، والله يطعمكن ويهبكن الأنهار والعيون لتشربن من مائها ؛ ويهبكن الجبال والوديان لتأوين إليها ؛ والأشجار الباسقة التى تبنين فيها أعشاشكن ، وإذ كنتن لا تستطعن أن تغزلن أو تخطن فإن الله يكسوكن أنتن وأبناءكن . . . فاحذرن إذن يا أخواتى الصغار أن ترتكبن ذنب الكفران بالنعمة ، ولا تغفلن أبداً عن حمد الله(٥٤) .

ويؤكد لنا الأخوان چيمس وماسيو أن الطيور كانت تنحنى احتراماً لفرانسس ، وأنها لم تكن تبرح أماكنها حتى يباركها . والزهيرات Fioretta التى نقلنا منها هذه القصة هى تبسيط باللغة الإيطالية لكتاب Actus Beati Francisci المكتوب باللغة اللاتينية (١٣٢٣) ، وهى أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ الحق ، ولكنها تعد فى مستوى أجمل مؤلفات عصر الإيمان وأعظمها متعة .

ولما قيل له إن إنشاء طائفة دينية جديدة يتطلب الحصول على إذن من البابا ، سافر فرانسس ومريدوه الاثنا عشر إلى رومة فى عام ١٢١٠ ، وعرضوا طلبهم ومبادئهم على إنوسنت الثالث . فنصحهم البابا العظيم بلطف أن يؤجلوا مسألة الإنشاء الرسمى للطائفة الجديدة حتى يحين الوقت لاختبار مبادئهم اختباراً عملياً ، وقال لهم : « أبنائى الأعزاء ، إن حياتكم لتبدو لى أقسى مما تطيقون ، نعم إنى أرى أنكم شديدو التحمس لمبادئكم . . . ولكن من واجبى أن أفكر فيمن سيأتون بعدكم خشية أن يكون أسلوب حياتكم فوق ما يطيقون »[٥٥] . وأصر فرانسس على طلبه ، وخضع له البابا آخر الأمر — خضعت القوة الممثلة فى شخص البابا إلى الإيمان الممثل فى شخص فرانسس — ، وقص الإخوان شعورهم ، وخضعوا لرجال السلطة الدينية ، وحصلوا من البندكتيين فى مونت سباسيو Mt. Subasio القريب من أسيسى على مصلى القديسة مارى الملائكية St.Mary of the Angels ، وهى مصلى لا يزيد طولها على عشر أقدام ، وقد بلغ من صغر مساحتها أن أطلق عليها فيما بعد اسم پورتى أنكولا Portiuncula — « أى الجزء الصغير » . وبنى الإخوان لهم أكواخا حول المصلى ، وكانت هذه الأكواخ أولى أديرة طائفة القديس فرانسس الأولى .

وانضم إلى الطائفة أعضاء جدد ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، ولكن فتاة ثرية فى الثامنة عشرة من عمرها هى كلارا دى اسكفى Clara dei Sciffi طلبت

إليه أن يأذن لها بإنشاء طائفة ثانية من طوائف القديس فرانسس خاصة بالنساء (١٢١٢) . وابتهج القديس لهذا الطلب أعظم ابتهاج — فقد غادرت الفتاة بيتها ونذرت نفسها للفقر ، والطهر ، والطاعة ، وأصبحت رئيسة دير فرنسيسى أقيم حول مصلى القديس دميان . ثم أنشئت طائفة ثالثة من طوائف القديس فرانسس — هى الطائفة الثلاثية — من بين العلمانيين الذين لم يكونوا يرتبطون بقواعد القديس فرانسس كاملة ، ولكنهم أرادوا أن يتبعوا هذه القواعد قدر المستطاع ، وأن يعيشوا فى « الدنيا » ، ويساعدوا الطائفة الأولى والثانية بعملهم وصدقاتهم . وحملت الطوائف الفرنسيسية المطردة الزيادة إنجيلها إلى بلدان أمبريا (١٢١١) ، ثم حملته فيما بعد إلى غيرها من مقاطعات إيطاليا . ولم يكن هؤلاء الرهبان ينطقون بشىء عن الضلالة ، بل كانوا يعظون الناس عظات بسيطة فى شئون الدين ؛ ولم يكونوا يطلبون إلى المستمعين أن يأخذوا أنفسهم بالعفة ، والفقر ، والطاعة التى وهبوا هم أنفسهم لها ، بل كانوا ينادونهم « خافوا الله وعظموه ، وأثنوا عليه وسبحوه . . . وتوبوا إليه واستغفروه . . . فإنكم تعلمون أنا عما قليل ميتون . . . تجنبوا الشر ، وثابروا على الخير » .

لقد طالما سمعت إيطاليا هذه الألفاظ من قبل ، ولكنها قلما سمعتها من رجال أوتوا من الإخلاص البين مثل ما أوتى هؤلاء الرجال . وأقبل الناس ذرافات ليستمعوا إلى مواعظهم ، وعرفت قرية فى أمبريا أن القديس فرانسس مقبل عليها . فخرجت على بكرة أبيها لتحييه بالأزهار ، والأعلام ، والأناشيد[٥٦] . ولما أقبل على سينا Siena وجد المدينة فى حرب أهلية ؛ فلما استمع الحزبان المتحاربان إلى مواعظه أقبلوا عليه خاضعين ، وأنهوا نزاعهم طوعاً لأمره إلى حين[٥٧] . وكانت هـذه الرحلات التبشيرية التى قام بها فى إيطاليا هى التى أصيب فيها بالملاريا التى قضت على حياته فى سن مبكرة .

بيد أن ما لقيه من النجاح فى إيطاليا وجهله بالإسلام قد شجعاه على مواصلة

العمل ، فاعتزم أن يذهب إلى بلاد الشام ويدعو المسلمين والسلطان نفسه إلى اعتناق الدين المسيحى . ولهذا أبحر فى عام ١٢١٢ من إحدى الثغور الإيطالية ولكن عاصفة بحرية قذفت بسفينته إلى شاطئ دلماشيا واضطرته أن يرجع إلى إيطاليا ؛ غير أن إحدى الأقاصيص تقول إن « القديس فرانسس أدخل فى دينه سلطان بابل »(٥٨) . وتقول قصة أخرى أكبر الظن أنها غير صادقة كسابقتها إنه سافر فى ذلك العام نفسه إلى أسپانيا ليدخل المسلمين فى دين المسيح ، ولكنه حين وصل إليها أصيب بمرض شديد اضطر مريديه أن يعودوا به إلى أسيسى . وتروى قصة أخرى مشكوك فى صحتها أنه جاء إلى مصر ، وأنه مر بسلام فى صفوف جيش المسلمين الذى كان يقاوم الصليبيين عند دمياط ، وعرض أن يخوض النار إذا وعده السلطان أن يعتنق هو وجنوده الدين المسيحى إن خرج من النار سالما ؛ ورفض السلطان هذا العرض ولكنه أمر بأن يعد للقديس حرس يصحبه إلى معسكر المسيحيين . وروع فرانسس حين رأى ما أظهره جنود المسيح من وحشية وهم يذبحون السكان المسلمين حين استولى الصليبيون على دمياط(٥٩) ، فعاد إلى إيطاليا مريضاً محزونا ، وأصيب وهو فى مصر ، فضلا عن مرض الملاريا ، برمد أوشك فى مستقبل حياته أن يفقده بصره .

وازداد أتباع القديس فى أثناء غيابه زيادة أسرع مما يستطيع معها السيطرة عليهم. ذلك أن شهرته جعلت الأتباع ينضمون إليه دون أن يفكروا فى الأمر التفكير الواجب ، فأخذ بعضهم يندمون على تسرعهم ، وشكا البعض الآخر من صرامة مبادئ الطائفة ، فنزل فرانسس عن بعض القواعد وهو كاره . وما من شك كذلك فى أن انتشار الطائفة التى انقسمت إلى عدة بيوت منتشرة فى أنحاء أمبريا قد تطلب منه مهارة إدارية وكياسة لا قبل له بهما لشدة انهماكه فى مساءته الصوفية . من ذلك ما يروى أن راهبا اغتاب زميلا له فأمره فرانسس أن يأكل قطعة من روث حمار حتى لا يحلو الخبث فى لسانه من بعد . وصدع

الراهب بالأمر ولكن زملاءه هالهم العقاب أكثر مما هالتهم الجريمة[٦٠] . وتخلى فرانسس فى عام ١٢٢٠ عن زعامة الطائفة ، وأمر أتباعه أن يختاروا لها غيره مرشداً عاماً ، وارتضى فيما بعد أن يكون راهباً بسيطاً . لكنه أزعجه بعد عام من ذلك الوقت ما رآه من استمرار التراخى فى إطاعة المبادئ الأولى (١٢١٠) فوضع للطائفة قواعد جديدة — هى « العهد » الذائع الصيت — أراد بها أن يتقيد أتباعه تقيداً تاماً بمراعاة يمين الفقر التى أقسموا أن يراعوها ، ونهى الرهبان عن الانتقال من أكواخهم عند البورتى أنكولا إلى الأحياء الطيبة الهواء التى أنشأها لهم أهل المدينة ؛ وعرض هذه القواعد على هونوريوس الثالث فأحالها إلى لجنة من المطارنة لمراجعتها ، فلما خرجت من أيديهم كانت قد أخذت بنحو اثنتى عشرة قاعدة من قواعد فرانسس وبمثلها من التعديلات المخففة ، وهكذا تحققت نبوءة إنوسنت الثالث .

وعمد فرانسس فى ذلك الوقت على كره منه ، وإطاعة لما أخذ به نفسه من خشوع ، عمد إلى حياة قضى معظمها فى التفكير ، والعزلة ، والزهد ، والصلاة . وجاءته شدة خشوعه وقوة خياله من حين إلى حين برؤى المسيح ، أو مريم ، أو الرسل . وفى عام ١٢٢٤ غادر أسيسى مع ثلاثة من مريديه وخرج يقطع الجبال والسهول حتى وصل إلى صومعة على جبل فرنا M. Verna بالقرب من شيوزى Chiusi ، وأقام منفرداً فى كوخ منعزل وراء أخدود عميق لا يسمح لأحد غير الأخ ليو أن يزوره ، وأمره ألا يأتى إليه إلا مرتين كل يوم ، وألا يجىء إذا لم يتلق رداً على ندائه بأنه قريب منه . وفى اليوم الرابع عشر من سبتمبر عام ١٢٢٤ يوم عيد تمجيد الصليب المقدس ، وبعد صوم طويل وليلة قضاها ساهراً مصلياً — فى هذا اليوم خيل إلى فرانسس أنه رأى ملكاً ينزل من السماء يحمل معه صورة للمسيح المصلوب ، ولما توارى الشبح أحس بآلام غريبة وتبين زوائد لحمية فى كفيه وظهرى يديه ، وفى أسفل قدميه وأعلاهما ، وفى جسمه كله شبيهة فى أماكنها

وفى لونها بالجروح التى أحدثتها فى ظن الناس المسامير التى يعتقدون أنها دقت أطراف المسيح فى الصليب والحربة التى نفذت فى جنبه(*) .

وعاد فرانسس إلى صومعته وإلى أسيسى ، وشرع بعد عام من ظهور تلك القروح يفقد بصره ، إلى أن كان يوماً فى زيارة لدير القديسة كلارا ففقد بصره فقداناً تاما . ومرضته كلارا حتى عاد إليه نور عينيه واستبقته فى دير القديس دميان شهراً من الزمان ، وفيه ألّف فى يوم من أيام ١٢٢٤ « تسبيحة الشمس » بالنثر الإيطالى الموزون ، ولعله ألفها وهو فى نشوة الفرح أيام النقاهة من مرض عينيه(٦٢) :

ربّاه يا ذا الخير والجلال والسلطان الأعظم ،
إليك الحمد ، والمجد ، والتكريم ، وكل البركات ؛
إنك أنت وحدك يا ذا الجلال خليق بها
وما من أحد يليق به أن يذكرك .
إليك الحمد يارب أنت وجميع مخلوقاتك ،
وأكثر ما يكون ذلك الحمد لأخينا الشمس
الذى يهبنا النهار ويضيؤنا به
والشمس جميلة ساطعة ذات روعة ،
بينها وبينك يا ذا الجلال بعض الشبه ،
تسبّح بحمدك يا رب قمر السماء ونجومها ؛
فقد خلقتها فى السماء صافية ، ثمينة ، جميلة

(*) قيل إنه ربما كان سبب هذه الفقاقيع هو الملاريا الخبيثة . ومما هو معروف أن هذا المرض يحدث نزيفاً فى الجلد من الدم الأرجوانى ، لعدم معرفة القوم وقتئذ بوسائل العلاج الحديثة(٦١) .

نُسبّح بحمدك يا رب الرياح ، والهواء ، والسحب ، والجواء كلها ، الطيّب منها وغير الطيب ، وهى التى تهب بها القوت لمخلوقاتك .

تُسبّح بحمدك يا رب أختنا المياه
ذات النفع العظيم والتواضع الجم ، الثمينة النقية .
تُسبح بحمدك يا رب أختنا النار
التى أضأت بها دجى الليل ،
وهى جميلة ، ومبتهجة ، وشديدة وقوية ،
تُسبح بحمدك يا رب أختنا وأمنا الأرض ،
التى تمدنا بالغذاء وتسيطر علينا ،
وتخرج لنا الفاكهة المختلفة الأشكال والأزهار ،
والأعشاب ذات الألوان .
يُسبح بحمدك يا رب من يعفون عن الناس حبا فيك ،
ويحتملون آلام المرض والمحن ،
طوبى لمن يحتملونها فى هدوء ،
لأنك أنت يا ذا العظمة ستضع على رءوسهم التيجان .

ورأى بعض الأطباء فى ريتى أن يمروا بقضيب من الحديد المتوهج على جبهته ليعالجوا بذلك مرض عينيه بعد أن مسحوهما « ببول غلام لم يباشر قط النساء » . ويقال إن فرانسس نادى : « الأخ النار : إنك جميل فوق كل المخلوقات ؛ فمن على فى هذه الساعة ؛ وإنك لتعلم مقدار حبى العظيم الدائم لك » ؛ وقال فيما بعد إنه لم يحس قط بألم . واسترد من قوة البصر ما يكفيه لأن يبدأ رحلة أخرى يعظ فيها الناس ، ولكن متاعب السفر لم تلبث أن أنهكت قواه ؛ وأقعده داء الملاريا ومرض الاستسقاء ، فعادوا به إلى أسيسى .

واضطروه رغم احتجاجه إلى الرقاد فى قصر الأسقفية ؛ وسأل الطبيب أن يصدقه الخبر ، فقيل له : إنه لا يكاد يبقى حيا بعد الخريف ، وأدهش جميع الحاضرين إذ بدأ يغنى ، ثم أضاف ، على حد قولهم ، مقطوعة أخرى إلى تسبيحة الشمس :

نُسبح بحمدك يا رب يا من منت علينا بأختنا مَيْتةَ الجسد التى لاينجو منها بشر .

فوا أسفى على من يموتون وهم آثمون
وطوبى لمن هم طوع إرادتك المقدسة ،
لأن الميتة الثانية لن ينالهم منها أذى(٦٣) .

ويقال : إنه ندم فى تلك الأيام الأخيرة على زهده لأنه « أساء به إلى أخيه الجسم »(٦٤) . ولما خرج الأسقف من عنده أقنع فرانسس الرهبان — أن ينقلوه إلى پورتى أنكولا ؛ وفيها أملى وصيته ، وهى وصية تجمع بين التواضع والقوة ، فقد أمر أتباعه أن يقنعوا « بالكنائس الفقيرة المهجورة » ، وألا يقيموا فى بيوت لا تتفق مع الأيمان التى أقسموها بأن يظلوا فقراء ؛ وأن يسلموا للأسقف كل ضال أو ناكث للعهد من رهبان الطائفة ؛ وألا يغيروا قط مبادئهم(٦٥) :

وأدركته المنية فى اليوم الثالث من شهر أكتوبر من عام ١٢٢٦ ولما يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره ؛ وكان فى اللحظة الأخيرة ينشد أحد المزامير . وبعد سنتين من وفاته سمته الكنيسة قديسا . وكان زعيمان آخران يسيطران على هذا العصر القوى الحركة هما إنوسنت الثالث وفردريك الثانى . فأما إنوسنت فقد رفع مقام الكنيسة إلى أعلى ذروته ، ومن هذه الذروة هوت بعد قرن من الزمان ؛ وأما فردريك فقد رفع الإمبراطورية إلى ذروة مجدها ، ومن هذه الذروة هوت بعد عقد واحد . ولسنا ننكر أن فرانسس قد بالغ فى فضائل الفقر والجهل ،

ولكنه بعث القوة فى الدين المسيحى بأن أعاد إليه روح المسيح . وأولو العلم وحدهم هم الذين يعرفون اليوم البابا والإمبراطور ، أما القديس الساذج فيتغلغل حبه فى قلوب الملايين من بنى الإنسان .

وبلغ عدد أعضاء الطائفة التى أنشأها خمسة آلاف عضو عند وفاته ، وانتشرت فى بلاد المجر ، وألمانيا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا . وكانت هى الدعامة التى تعتمد عليها الكنيسة فى عودة شمالى إيطاليا من الضلالة إلى الكثلكة . ولم تقبل إنجيل الفقر والأمية الذى كانت تنادى به إلا أقلية صغيرة ، لأن أوربا أصرّت على التخبط فى تيه الثروة ، والعلم ، والفلسفة ، والشك المثير للنفوس . وفى هذه الأثناء (١٢٣٠) تحلل رهبان الطائفة مرة أخرى من القواعد المعدلة التى وافق عليها فرانسس وهو كاره ؛ فلم يكن يُنتظَر من الناس أن يبقوا زمناً طويلا ، وأن يبقوا بالعدد المطلوب ، محتفظين بذلك المستوى العالى من الزهد الذى لا يكاد يقبله عاقل ، والذى عجل منية فرانسس . فلما خفت وطأة قواعد الطائفة بعض الشىء زاد عدد الإخوان الصغار حتى بلغ قبل عام ١٢٨٠ نحو مائتى ألف راهب يقيمون فى ثمانية آلاف دير ، وحتى أصبحوا من كبار الواعظين ، وحتى حملوا رجال الدين بما ضربوه لهم من الأمثلة على أن يقوموا بالوعظ والإرشاد ، وكانت هذه العادة حتى ذلك الوقت مقصورة على الأساقفة دون غيرهم . وخرج من بينهم قديسون أمثال القديس برنردينو السينائى Bernardino of Siena والقديس أنطونى البدوائى Antony of Padua ، كما قام من بينهم علماء مثل روجر بيكن ، وفلاسفة مثل دن اسكوتس Dun Scotus ومعلمون مثل اسكندر الهاليسى Alexander of Hales ، وأضحى بعضهم عمالا لمحاكم التحقيق ؛ وارتقى بعضهم إلى كراسى الأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، والبابوية ؛ وقام كثيرون منهم بمغامرات تبشيرية فى بلاد أجنبية بعيدة . وتوالت عليهم الهبات من الأتقياء الصالحين ، وتعلم بعض زعمائهم ، مثل الأخ إلياس ،

حب الترف ، وأقام لذكرى فرانسس تلك الباسلقا الرائعة التى لا تزال تتوّج تل أسيسى وإن كان مؤسس الطائفة قد حرّم إقامة الكنائس الكبرى . ولقد كانت رسوم سيمابيو Cimabue وچيتو Giotto فى هذه الباسلقا أول تتاج ذلك الأثر العظيم الخالد الذى كان للقديس فرانسس ولتاريخه وقصصه فى الفن الإيطالى .

واحتج كثيرون من أبناء الطائفة على التحلل من بعض قواعد فرانسس وآووا إلى صوامع أو أديرة صغيرة فى جبال الأپنين يعيشون فيها زهاداً « روحيين » أو « متحمسين » ، أما بقية الفرنسيسيين فقد آثروا الأديرة الرحبة . وكان الروحيون يقولون إن المسيح والحواريين لم يكن لهم متاع ؛ ووافقهم على هذا القديس بونا ڤنتورا Bonaventura ، وصدّق البابا نقولاس الثالث على ذلك الرأى فى عام ١٢٧٩ ، غير أن البابا يوحنا الثانى والعشرين أعلن فى عام ١٣٢٣ أنه رأى خاطئ ؛ ومن ذلك الحين عــدّ « الروحيون الذين أصروا على الدعوة إلى هذا المبدإ من الضالين ، وقمعت حركتهم . وبعد مائة عام من وفاة فرانسس حرقت محاكم التحقيق أتباعه عند أعمدة التحريق .

الفصل الرابع

القديس دمنيك

يظلم الناس دمنيك حين يقولون إن اسمه يوحى بمحاكم التحقيق ، ذلك أن دمنيك لم يكن هو الذى أنشأ تلك المحاكم ، ولم يكن هو الذى تلقى عليه تبعة ما لجأت إليه من إرهاب ؛ فقد كان نشاطه مقصوراً على هداية الناس بالقدوة والموعظة الحسنة . وكان أقوى من فرانسس شكيمة ، ولكنه كان يجله ويراه أعظم منه قداسة ، وحباه فرانسس بحبه جزاء له على هذه الصفات الطيبة . وكان عمل الرجلين فى جوهره واحداً : فكلاهما نظم طائفة عظيمة من الرجال لايعمدون إلى نجاة أنفسهم بطريق العزلة ، بل بالتبشير بين المسيحيين وغير المسيحيين . وأخذ كلاهما من الضالين أعظم أسلحتهم إقناعا — وهو مدح الفقر والقيام بالوعظ ، وكان لهما معاً فضل إنقاذ الكنيسة .

ولد دمنجو ده جزمان Domingo de Guzman فى قلعة رويجا من أعمال قشتالة (١١٧٠) ونشأ فى رعاية عم له من القساوسة ، فكان رجلا من آلاف الرجال الذين تمكنت المسيحية من نفوسهم ، وعمرت بها قلوبهم . ويقال إنه لما نزل القحط بمدينة بلنسية ، باع جميع متاعه ، وفيه كتبه الثمينة ليطعم بثمنها فقراء المدينة . وأصبح قساً أغسطينيا نظاميا فى كنيسة أسما Osma ، وصحب أسقفها فى عام ١٢٠١ فى بعثة تبشيرية إلى طولوز ، وكانت وقتئذ مركز الفئة الألبجنسية الضالة . وكان مضيفهما نفسه ألبجنسيا ، وقد يكون من الأقاصيص الموضوعة أن دمنيك هداه إلى الدين القويم فى أثناء الليل . وأوحى إليه نصح الأسقف ، والمثل الذى ضربه له بعض الضالين ، فعمد إلى حياة الفقر الاختيارى .

ومشى حافى القدمين ، وبذل ما يستطيع من الجهد ليعيد الناس بطريق السلم إلى حظيرة الدين القويم . والتقى فى منپلييه بثلاثة من مندوبى البابا — أرنلد Arnold وراؤل Raoul وبطرس الكاسلنووى Peter of Castelnaw وروع حين شهد ثيابهم الغالية وترفهم ، وعزا إلى هذا ما أقرا به من عجز عن كفاح الضلالة ، وأخذ يؤنبهم بجرأة لا تقل عن جرأة أنبياء العبرانيين : « إن الضالين لا يردون الناس عن دينهم ويضمونهم إليهم بما يظهرون من القوة والأبهة ، ولا بمواكب الخدم والحشم ، وإنما يردونهم بالوعظ الحماسى ، وبالخشوع المماثل لخشوع الحواريين ، وبالتقشف ، والاستمساك بالدين »(٦٦) ويقال إن المندوبين استحوا من عملهم ، فصرفوا حاشيتهم وخلعوا نعالهم .

وأقام دمنيك فى لانجويدك عشر سنين (١٢٠٥ — ١٢١٦) ، يعظ الناس بكل ما أوتى من غيرة وحماسة . ولم يذكر اسمه فى حادث ذى صلة بالاضطهاد البدنى إلا ما قيل من أنه أنجى أحد الضالين من اللهب عند عمود الإحراق(٦٧) . ويطلق عليه بعض أتباعه تفاخراً به اسم — Persecutor Haere ticorum — وليس معنى هذا حتماً أنه مضطهد الضالين بل قد يكون معناه أنه مطاردهم فحسب . وجمع حوله طائفة من الوعاظ ، بلغ من تأثيرهم أن اعترف البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦) بأن « الإخوان الوعاظ » طائفة جديدة ، وصدق على دستورهم الذى وضعه لهم دمنيك ، واتخذ الرجل مركزه الرئيسى فى رومة ، وأخذ يجمع الأنصار ويعلمهم ، ويبث فيهم من روحه الحماسية التى كادت تبلغ حد التعصب ، ثم بعثهم يجوسون خلال أوربا حتى كيف Kiev من جهة الشرق ، والبلاد الأجنبية ، ليهدوا المسيحيين والكفار إلى دين المسيح . ولما عقد أول اجتماع للدمنيكيين فى بولونيا عام ١٢٢٠ ، أقنع دمنيك أتباعه بأن يوافقوا بإجماع الآراء على دستور الفقر المطلق . ومات فى هذه البلدة بعد عام من ذلك الاجتماع .

وانتشر الدمنيكيون ، كما انتشر الفرنسيسيون ، فى كل مكان فكانوا

إخوانا ، متسولين ، جوالين . ويصف ما يثوپاريس فى عام ١٢٤٠ طائفتهم فى إنجلترا بقوله :

إنهم قوم شديدو الاقتصاد فى طعامهم ولباسهم ، لا يقتنون ذهباً ولا فضة ولا شيئاً ما لأنفسهم ، يطوفون بالمدن ، والبلدان ، والقرى ، يدعون إلى الإنجيل . . . ويعيشون جماعات من عشرة أو سبعة . . . لا يفكرون فى الغد ، ولا يحتفظون بشىء ما للصباح التالى . . . يعطون الفقراء من فورهم كل ما بقى لديهم من الطعام الذى يتصدق بها الناس عليهم . يسيرون حفاة ، ولا يحتفظون إلا بالإنجيل ، وينامون بثيابهم على الحصر ، ويتخذون الحجارة وسائد يضعونها تحت رؤسهم(٦٨) .

واضطلعوا فى أعمال محاكم التحقيق بدور نشيط لم يكن على الدوام مشوباً برقة القلب ، وعينهم البابوات فى مناصب رفيعة وأرسلوهم فى بعثات دبلوماسية خطيرة ، والتحقوا بالجامعات ، ونبغ منهم رجلان جباران فى الفلسفة المدرسية هما ألبرتس ماجنس وتومس أكويناس ، وكانوا هم الذين أنقذوا الكنيسة من أرسطو بأن بدلوه رجلا مسيحيا . ولقد أحدثوا هم والفرنسيسيون ، وإخوان الكرمل وأوستن ثورة فى حياة الرهبنة ، وذلك باختلاطهم بعامة الشعب كل يوم فى أثناء الخدمات الدينية ، وسموا بالرهبنة فى القرن الثالث عشر فوهبوها من القوة والجمال ما لم تستمتع بمثله قبل.

وإن النظرة الشاملة إلى تاريخ الرهبنة لاتؤيد إسراف علماء الأخلاق فى مدحها ولاسخرية شانئيها . وفى وسعنا أن نذكر أمثلة جمة من سوء السيرة بين الرهبان وهذه الأمثلة إنما تلفت أنظارنا لأنها الشواذ وليست القاعدة ؛ وهل منا من بلغ من الطهر والصلاح درجة يحق له معها أن يتطلب من أية طائفة من الناس حياة تقية لا تشوبها أدنى شائبة ؟ ولقد نجا الرهبان الذين بقوا مخلصين لأيمانهم

— أى الذين عاشوا مغمورين فى فقرهم ، وعفتهم وتقواهم — نجا هؤلاء من الغيبة ، ومن التاريخ ؛ ذلك أن الفضيلة لا تنقل أخبارها ، وأن القراء والمؤرخين يملون تكرارها . فنحن نسمع عن « صروح شامخة » يملكها الرهبان الفرنسيسيون منذ عام ١٢٤٩ ، وفى عام ١٢٧١ أبلغ روجر بيكن — الذى طالما تفرق سامعوه من حوله لشدة مغالاته — أبلغ هذا الراهب البابا أن « الطوائف الحديثة قد سقطت سقوطاً مروعاً من علياء كرامتها الأولى »[٦٩] . ولكن هذه ليست هى الصـــورة التى يصورها لنه الأخ سلمبين Salimbene فى أخباره الصريحة الدقيقة (١٢٨٨ ؟) فها هو ذا راهب فرنسيسى ينتقل بنا إلى ما وراء السجف وإلى الحياة اليومية للطائفة التى ينتمى إليها . ولسنا ننكر أن فى حياة أفرادها هفوات متفرقة ، وأن فيها شيئاً من التنازع والتحاسد ؛ ولكن جوا من التواضع ، والبساطة ، والأخوة ، والسلام يغمر هذه الحياة الشاقة المكبوتة[٧٠] . وإذا ما دخلت بين الفينة والفينة امرأة فى هذه القصة ، فكل ما لها فيها من أثر أنها تضفى مسحة من الرشاقة والحنان على حياة العزلة والضيق التى يحياها أولئك الرهبان . وها هو ذا مثل من ثرثرة الأخ سلمبين الصريحة :

كان فى دير بولونيا شاب يسمى الأخ جيدو Guido اعتاد أن يغط فى نومه غطيطاً عاليا لا يستطيع معه إنسان أن يبقى معه فى نفس البيت . ولهذا امر أن ينام فى سقيفة من الخشب والقش . ولكن هذا أيضاً لم يُنج منه الإخوان ، لأنى هزيم هذا الرعد الملعون كان يتردد صداه فى جميع أنحاء الدير . ولهذا اجتمع القساوسة وذوو الرأى من الإخوان على بكرة أبيهم . . . وأصدروا قراراً رسميا أن يردوه إلى أمه التى خدعت الطائفة ، لأنها كانت تعرف هذا كله عن ولدها قبل أن تضمه إلينا . ولكنه مع ذلك لم يرسل إلى أمه ، وكان عدم إرساله بفعل الله . . . ذلك أن الأخ نقولاس قال فى نفسه : إن الغلام سيطرد لعيب طبيعى فيه ، دون

أن يرتكب هو نفسه ذنباً ، فكان يدعو الصبي فى كل يوم عند مطلع الفجر أن يأتى إليه ويخدمه فى ساعة القداس ، حتى إذا فرغ منه أمر الغلام أن يركع وراء المذبح يرجو أن ينال منه بعض البركة . وفى هذه الساعة يلمس الأخ نقولاس بيديه وجه الغلام وأنفه ، ويدعو الله أن يمن عليه بنعمة الصحة . وجملة القول أن الغلام شفى فجأة من مرضه شفاء تاما ، ولم يسبب للإخوان بعدئذ متاعب أخرى . وأصبح من هذه الساعة ينام نوماً هادئا سالما كما تنام الزغبة(*) :

(*) وتسمى أيضاً الفأرة النوامة وهى حيوان بين الفأر والسنجاب dormouse . (المترجم)

الفصل الخامس

الراهبـــات

كانت العادات المألوفة فى المجتمعات المسيحية منذ أيام القديس بولس أن تهب بعض الأرامل وغيرهن من النساء الصالحات ، أو اللاتى يعشن وحدهن ، بعض أيامهن وثروتهن أو كل هذه الأيام والثروة إلى أعمال البر . ثم أخذت بعض النساء فى القرن الرابع ينافسن الرهبان ، فتركن شئون الدنيا وعشن عيشة دينية منفردات أو مجتمعات ، ونذرن أنفسهن للفقر ، والطهر ، والطاعة ؛ حتى إذا كان عام ٥٣٠ أنشأت اسكولاستيكا Scholastica توأمة القديس بندكت ديراً للنساء بالقرب من جبل كسينو Monte Cassino يسير على دستوره وتحت إشرافة . وأخذت أديرة النساء البندكتية من ذلك الحين تنتشر فى أنحاء أوربا ، حتى كان عدد الراهبات البندكيات يضارع عدد الرهبان البندكتيين . وافتتحت طائفة الرهبان الستر سيين أول دير للنساء فى عام ١١٢٥ ، ثم افتتحت أشهر أديرتها كلها وهو دير پورت رويال Port Royal فى عام ١٢٠٤ ، ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان فى أوربا ٧٠٠ دير سسترسى للنساء[٧٢] . وكانت معظم الراهبات اللاتى دخلن أديرة هذه الطوائف القديمة من الطبقات العليا[٧٣] ، وكثيراً ما كانت الأديرة ملاجئ للنســـاء اللاتى تضيق بهن بيوت أهلهن أو اللاتى لم يكن يوائمن أذواق هؤلاء الأهلين . ومن أجل هذا اضطر الإمبراطور مجوريان Majorian أن يحرّم على الآباء التخلص من بناتهـــم الزائدات عن حاجتهم بإرغامهن على دخول الأديرة[٧٤] . وكان دخول أديرة النساء البندكتية يتطلب عادة بائنة ، وإن كانت الكنيسة قد حرمت جميع الهبات إلا الاختيارية منها[٧٥] . ولهذا

كان فى وسع رئيسة الدير أن تكون ، كما كانت الرئيسة الوارد ذكرها فى أشعار تشوسر Chaucer ، امرأة من أسرة عريقة ، ذات تبعات كثيرة ، تدير أملاكاً واسعة هى مصدر إيراد ديرها ؛ وكانت الراهبة فى تلك الأيام تسمى « السيدة » لا « الأخت » :

وأحدث القديس فرانسس انقلاباً كبيراً فى نظم أديرة النساء كما أحدث انقلاباً فى نظم أديرة الرجال ؛ ولما أن أقبلت عليه القديسة كلارا Clara فى عام ١٢١٢ وأبدت إليه رغبتها فى أن تنشئ للنساء طائفة من الراهبات كالتى أنشاها هو للرجال ، تغاضى عن النظم الكنسية ، وتلقى منها إيمانها ، وإن لم يكن وقتئذ أكثر من شماس ، وضمها إلى طائفة الرهبان الفرنسيسيين وأذن لها أن تنشئ طائفة الكلاريات الفقيرات The Poor Clares ، وأيد إنوسنت الثالث ، بما اعتاده من قدرة على خرق حرفية القوانين فى سبيل روحها ، هذا الإذن (١٢١٦) . وجمعت القديسة كلارا حولها بعض النساء الصالحات اللاتى عشن معها عيشة فقيرة مشتركة ، يغزلن وينسجن ، ويعنين بالمرضى ، ويوزعن الصدقات . ونسجت حولها القصص الخرافية التى لا تكاد تقل فى تمجيدها عما نسج حول فرانسس نفسه ، منها ، على حد قولهم ، أن أحد البابوات :

جاء إلى ديرها ليستمع إلى حديثها عن الأمور القدسية والسماوية ... وأمرت القديسة كلارا بأن تمد المائدة ، ووُضعت عليها أرغفة الخبز لكى يباركها الأب المقدس ... وركعت القديسة كلارا فى خشوع عظيم ، وسألته أن يتفضل فيبارك الخبز ... فأجابها الأب المقدس بقوله : « أيتها الأخت يا كلير Clare ، يا أعظم النساء وفاء وإخلاصا ، إنى أحب أن تباركى أنت هذا الخبز ، وأن ترسمى فوقه علامة الصليب المقدس ، صليب المسيح ، الذى وهبت نفسك كاملة إليه » . فأجابته القديسة كلارا بقولها : « مغفرة أيها الأب المقدس ؛ لو أننى ، وأنا المرأة الفقيرة الحقيرة ، بلغت بى الجرأة أن أنطق بهذه البركة فى حضرة خليفة المسيح لحق على

أشد اللوم » . ورد عليها البابا قائلا : « ولكيلا يعزى هذا العمل إلى غطرستك وجرأتك بل يعزى إلى فضيلة الطاعة منك ، فإنى آمرك ، بحق ما يجب عليك من الطاعة المقدسة ، أن تباركى ... أنت باسم الله هذا الخبز » . فلم تجد القديسة كلارا وقتئذ مناصاً من أن تبارك الخبز فى خشوع بعلامة الصليب الأقدس عملا بواجب الطاعة المفروضة عليها . ومن أعجب الأشياء أن علامة الصليب ظهرت على جميع تلك الأرغفة مرسومة أجمل رسم . فلما رأى الأب المقدس هذه المعجزة ، طعم من الخبز وغادر المكان وهو يحمد الله ويودع بركته مع القديسة كلارا[٧٦] .

وماتت كلارا فى عام ١٢٥٣ ، وما لبثت أن ضمت إلى القديسين والقديسات . ونظم الرهبان الفرنسيسيون فى عدة أماكن مختلفة مثل هذه الطوائف الكلارية ، أو طوائف كلارا الفقيرة . وكذلك أنشأت طوائف الرهبان المتسولين — الدمنيكية ، والأوغسطينية ، والكرملية — طائفة ثانية من الراهبات ؛ ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد الراهبات فى أوربا لايقل عن عدد الرهبان . ونزعت أديرة الراهبات فى ألمانيا نزعة صوفية شديدة ، وفى فرنسا وإنجلترا كثيراً ما كانت ملاجئ لنساء الأسر الشريفة اللاتى « هُدين » لترك شئون الدنيا ، أو اللاتى أصابهن الهجر ، أو الخيبة ، أو الثكل . ويكشف دستور الناسكات Ancren Rwle ما كان يطلب إلى الراهبات الإنجليزيات أن يتصفن به فى القرن الثالث عشر . ولربما كان الأسقف پور Poore هو الذى وضع هذا الدستور لدير نسائى فى ترانت Tarrant من أعمال دورستشير Dorsetshire . ويخيم على هذا الدستور جوّ قاتم من الحديث الطويل عن الخطيئة والنار ، وبعض الذم التجديفى لجسم المرأة[٧٧] . ولكن نغمة من الإخلاص الجميل تخفف من وقع هذا القتام ، وهو من أقدم نماذج النثر الإنجليزية وأنبلها[٧٨] .

وبعد ، فإن من السهل على الإنسان أن يجمع من عشرة قرون أمثلة رائعة

من الفساد الخلقى المألوف . فقد دخلت بعض الراهبات الأديرة على الرغم منهن[٧٩] ووجدن متاعب فى حياة التقى والصلاح ، ولقد رأى ثيودور رئيس أساقفة كنتربرى وإجبرت أسقف يورك من الواجب عليهما أن يحرما على رؤساء الأديرة ، والقساوسة ، والأساقفة غواية الراهبات[٨٠] . وكتب إيفو Ivo أسقف تشارتر (١٠٣٥ — ١١١٥) يقول إن بعض راهبات دير القديسة فارا Fara يحترفن الدعارة ، ويرسم أبلار (١٠٧٩ — ١١٤٢) صورة شبيهة بهذه الصورة لبعض لأديرة الفرنسية القائمة فى أيامه ؛ ووصف إنوسنت الثالث دير أجاثا Agatha بأنه ماخور انتشرت عدوى فساد الحياة فيه وسوء سمعته فى جميع أنحاء الإقليم المجاور له[٨١] . ويرسم ريجو Rigaud أسقف رون (١٢٤٩) صورة طيبة بوجه عام للطوائف الدينية المنتشرة فى أسقفيته ، ولكنه يتحدث عن دير من أديرة النساء فيه ثلاث وثلاثون راهبة وثلاث أخوات من غير الراهبات وجدت منهن ثمان يحترفن الفسق أو يشتبه فى أنهن يحترفنه ، « ولا تكاد رئيسة الدير تبتعد عن الخمر ليلة واحدة »[٨٢] . وحاول بنيفاس الثامن (١٣٠٠) أن يرقى بقواعد الآداب التقليدية فى الأديرة فأمر بالتشديد فى عزلة الراهبات عن العالم ، ولكن أمره هذا لم يكن فى الإمكان تنفيذه[٨٣] ، ولما جاء الأسقف ليودع هذا القرار فى أحد أديرة النساء فى أسقفية لنكلن Lincoln قذفت الراهبات به رأسه ، وأقسمن أنهن لن يطعنه قط[٨٤] ، وأكبر الظن أن هذه العزلة لم تكن مما نص عليه فى قسمهن ، ولم يكن لرئيسة الدير الواردة فى أقاصيص تشوسر عمل تقوم به لأن الكنيسة حرمت على الراهبات أن يخرجن حتى للحج[٨٥] .

ولو أن التاريخ كان يعنى بذكر أمثلة الطاعة للقواعد المألوفة عنايته بذكر الأمثلة التى تخرق فيها هذه القواعد ، لاستطعنا فى أغلب الظن أن نذكر فى مقابل كل زلة آثمة ألف مثل من الإخلاص والأمانة . ولقد كانت دساتير الأديرة فى كثير من الحالات قاسية قسوة تخرجها عن طاقة البشر ، وكانت خليقة

بالخروج عليها . من ذلك أنه كان يتطلب إلى الراهبات الكرثوزيات ، والسسترسيات أن يلتزمن الصمت فلا يتكلمن إلا إذا لم يكن من الكلام بد — وذلك قيد شديد على الجنس اللطيف . وكانت الراهبات فى العادة يقمن بجميع ما يحتجنه من أعمال التنظيف ، والطبخ ، والغسل ، والخياطة ؛ ويصنعن الملابس للرهبان ، والفقراء ، والأغطية التيلية للمذبح ، وأثواب القسس ؛ وكنّ ينسجن السجف ، والأقمشة التى تزين بها الجدران ، وينقشن عليها بأصابعهن الرقيقة ، ونفوسهن الصابرة ، نصف تاريخ العالم . وكن ينسخن المخطوطات ويزينها بالرسوم والحروف الكبيرة الجميلة ويقبلن الأطفال للإقامة فى الدير ، ويعلمنهم الأدب ، وقانون الصحة ، والفنون المنزلية ، وكانت كثيرات منهن يعملن ممرضات فى المستشفيات ، وكن يقمن فى منتصف الليل ليصلين ، ثم يقمن مرة أخرى قبل الفجر ، ويتلون الصلوات الأخرى فى ساعاتها المحددة . وكانت أيام كثيرة أيام صوم ، لا يذقن فيها الطعام حتى تحين وجبة المساء .

وإنا لنأمل أن تكون هذه القواعد الشديدة قد خرقت أحياناً . ونحن إذا ما رجعنا بعقولنا إلى القرون التسعة عشر التى عاشتها المسيحية ، وإلى من فيها من الأبطال ، والملوك ، والقديسين ، صعب علينا أن نحصى كثيرين من الرجال الذين اقتربوا من الكمال المسيحى كما اقتربت منه الراهبات ؛ وما أكثر الأجيال التى سعدت بفضل حياتهن التى تفيض بالخشوع الهادئ والعمل فى ابتهاج لخدمة بنى الإنسان . ولو أن آثام التاريخ جميعها وزنت أمام فضائل أولئك النساء لرجحتها هذه الفضائل ولكفّرت عن كل ما اقترفه الجنس البشرى من ذنوب .

الفصل السادس

المتصـــوفة

واستطاعت كثيرات من أولئك النساء أن تكنّ قديسات لأنهن أحسسن بالألوهية أقرب إليهن من أيديهن وأرجلهن . وقد تأثرت أخيلة الناس فى العصور الوسطى بكل ما كان للألفاظ ، والصور ، والتماثيل ، والحفلات ، من قوة ، بل تأثرت فوق هذا بلون الضوء ومقداره تأثراً جعل الرؤى غير الحسية تتوارد سراعاً على هذه الأخيلة ، فكانت النفوس المؤمنة تحس بأنها تخترق حدود الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة . وكان العقل البشرى نفسه بكل ما له من سلطان غامض خفى يبدو كأنه شىء خارق للطبيعة ، وللأشياء الأرضية ، وقريب بلا ريب من العقل الكلى الذى يسير مادة العالم ويكمن فيها — أو أنه صورة من هذا العقل الكلى غير واضحة المعالم . وعلى هذا فإن فى مقدور ذروة العقل أن تمس أسفل عرش الله . وكان الصوفى الخاشع المتذلل الطموح يتحرق أملا فى أن تسمو روحه غير المثقلة بالذنوب ، والتى علت بالصلوات ، بفضل الله ونعمته إلى الرؤيى الطوباوية والصحبة الإلهية ، ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الرؤيى عن طريق الحس ، أو العقل ، أو العلم ، أو الفلسفة المقيدة بالزمان ، وبالكثرة ، وبالأرض ، ولا تستطيع أن تصل إلى لب الكون وقوّته ، ووحدته . وكانت المشكلة التى يواجهها الصوفى هى أن يطهر النفس التى هى عضو داخلى للإدراك الروحى ، وأن يوسع أفقها وحبها حتى تشمل أقصى ما يمكن أن تشمله ، فإذا تم لها ذلك رأت بقوة البصر الواضحة المجردة من الجسم معالم الكونية ، والخلد ، والألوهية ؛ ثم عادت ، وكأنها عادت من نفى طويل المدى ، إلى الوحدة مع الله الذى افترقت منه حين ولدت عقاباً لها . ألم يعِد المسيحُ ذوى القلوب الطاهرة أن يروا الله ؟

ولهذا ظهر الصوفيون فى كل عصر ، وفى كل دين ، وفى كل أرض ، وامتلأت بهم المسيحية اليونانية رغم ما خلفه اليونان من تراث عقلى ؛ وكان القديس أوغسطين ينبوع التصوف الذى نهل منه الغرب ، وكانت اعترافاته بمثابة عودة الروح من الكائنات المخلوقة إلى الله . وقلما استطاع إنسان أن يطول تحدثه إلى الذات العلية كما طال تحدث أوغسطين إليها . وقد ناصر القديس أنسلم السياسى والقديس برنار المنظم ، ذلك الاتصال الصوفى ليقاوما به النزعة العقلية التى كان يقول بها روسلن Roscelin وأبلار . ولما أخرج وليم الشمبووى Wiliam of Champeaux من باريس بقوة منطق أبلار أنشأ فى إحدى ضواحيها (١١٠٨) دير القديس ڤكتور St. Victor الأوغسطينى ليكون مدرسة للاهوت ؛ وتجاهل خليفتاه هيو Hugh ورتشرد Richard خطر الفلسفة الناشئة الداهم ، فلم يقيما قواعد الدين على الحجة والبرهان ، بل أقاماها على الإحساس الصوفى بالحضرة الإلهية . فقد كان هيو (المتوفى عام ١١٤١) يرى فى كل صورة من صور الخلق رمزاً قدسياً ، وكان رتشرد (المتوفى عام ١١٧٣) يرفض المنطق والعلم ، ويؤثر « القلب » على « الرأس » على طريقة پسكال ، ويصف بمنطق العالِم القدير السمو الصوفى للروح إلى مقام الذات العلية .

وأحالت عواطف إيطاليا القوية هذه النزعة الصوفية ثورة متأججة . وحدث أن تاقت نفس يواقيم الفلورائى Joachim of Flora — أو چيوڤنى دى يواقيمى دى فيورى Giovanni dei Joacchimi di Fiori — أحد نبلاء كلابريا Calabria إلى رؤية فلسطين ، وتأثر بما شاهده فى طريقه من بؤس الناس ، فصرف حاشيته ، وواصل سيره كما يسير الحاج الذليل . وتقول إحدى القصص إنه قضى فى سنة من السنين الصوم الكبير كله على جبل طابور ، وأن هالة عظيمة تبدت له فى يوم عيد القيامة ، وملأته نوراً إلهيا فهم به لساعته كل ما جاء فى الكتاب المقدس ، وكل ما فى المستقبل والماضى . فلما عاد إلى كلابريا أصبح راهبا وقسا سسترسيا ،

وتاقت نفسه إلى الزهد والتقشف ، وآوى إلى صومعة . والتف حوله عدد من الأتباع والمريدين ، وألف منهم طائفة جديدة من رهبان فلورا . وصدق سلستين الثالث Calestine III على ما وضعه لهم من دستور للفقر والصلاة . وبعث إلى إنوسنت فى عام ١٢٠٠ بطائفة من مؤلفاته قال إنه كتبها بوحى من الله ، ولكنه رغم هذا يضعها بين يدى البابا ليبحثها ويبدى رأيه فيها . ثم مات بعد سنتين من ذلك الوقت .

وكان أساس كتابته هو النظرية الأوغسطينية — التى كانت تلقى قبولا عظيما لدى جميع المتمسكين بالدين القويم — القائلة بأن هناك توافقا رمزيا بين الحوادث الوارة فى العهد القديم وفى تاريخ العالم المسيحى من مولد المسيح إلى قيام مملكة السماء على الأرض . وقسم يواقيم تاريخ البشر ثلاث مراحل : كانت أولاها تحت حكم الله الأب وانتهت بمولد المسيح ، والثانية يحكمها الابن وتستمر وفقاً للحساب السرى ١٢٦٠ سنة ، والثالثة تحت حكم الروح القدس ، ويسبقها عهد من الاضطراب ، والحرب ، والفقر ، وفساد الكنيسة ، ويؤذن بحلولها قيام طائفة جديدة من الرهبان تطهر الكنيسة وتحقق طوى عالمية من السلام والعدالة والسعادة(٨٦) .

وصدق آلاف من المسيحيين ، ومنهم رجال ذوو مناصب عالية فى الكنيسة ، ما قاله يواقيم عن الوحى الذى أوحى إليه ، وأخذوا يتطلعون والأمل يعمر قلوبهم إلى الميلاد الثانى فى عام ١٢٦٠ . وبعثت تعاليم يواقيم الشجاعة فى قلوب الفرنسيسيين الروحيين الذين كانوا يوقنون بأنهم هم الطائفة الجديدة ، ولما أن أعلنت الكنيسة أنهم خارجون على القانون واصلوا دعوتهم بما أذاعوه من الكتابات التى تحمل اسمه . وظهرت فى عام ١٢٥٤ مجموعة من أهم مؤلفات يواقيم بعنوان **الإنجيل الخالد** وعليه تعليق يقول : إن بابا من البابوات ملوثا ببيع المناصب الكهنوتية سيكون

خاتم العهد الثانى ، وإن الحاجة إلى العشاء الربانى وإلى القساوسة تنتهى فى العهد الثالث حين يسود الحب العالمى . وحرمت الكنيسة قراءة هذا الكتاب ، وحكم على راهب فرنسيس يدعى جراردو دا بورجا Ghérards da Borga ظُن أنه هو مؤلفه بالسجن مدى الحياة ؛ ولكن الكتاب ظل يُتداول سرا ، وكان له أثر بالغ فى التفكير الصوفى وفى تفكير الطوائف الضالة فى إيطاليا وفرنسا من أيام فرانسس إلى أيام دانتى — الذى جعل ليواقيم مكاناً فى الجنة .

وتأججت حول بروصة فى عام ١٢٥٩ سورة جنونية من الندم والتوبة من الذنوب واكتسحت شمالى إيطاليا ؛ ولعل الباعث عليها كان هو التحمس الشديد فى ترقب حلول مملكة السماء . وأخذ آلاف من القادمين من مختلف الطبقات والأعمار يسيرون فى مواكب غير منتظمة وليس عليهم من الثياب إلا ما يستر حقويهم ، يبكون ويرجون الله الرحمة ، ويضربون أنفسهم بسياط من الجلد . وانضم إلى هذه المواكب اللصوص والمرابون وردوا ما كسبوا من المال الحرام ، متأثرين بعدوى الندم ، فكانوا يركعون أمام أقارب ضحاياهم ويطلبون إليهم أن يقتلوهم ؛ وأطلق سراح المسجونين ، وطلب إلى المنفيين أن يعودوا إلى أوطانهم ، وزالت العداوات بين الناس وصفت القلوب . وسرت هذه الحركة من ألمانيا إلى بوهيميا ، وخيل إلى الناس وقتا ما أن إيمانا جديداً صوفياً سيغمر أوربا بأجمعها متجاهلا الكنيسة . ولكن فطرة الإنسان ما لبثت أن استعادت قوتها ، فتأججت نار العداوة بين الناس مرة أخرى ، وخبت نار تلك السورة الجنونية ، سورة الجلد بالسياط ، واختفت فى الأعماق النفسية التى خرجت منها(٨٧) .

وفى فلاندرز سارت حركة التصوف سيراً هادئاً متصلا . ذلك أن قسا من ليبج يدعى لامبير له بيج Lambert le Beuge (أى المتهته) أنشأ على ضفاف نهر الموز Meuse فى عام ١١٨٤ بيتاً للنساء اللاتى يردن أن يعشن معاً فى

جماعات صغيرة نصف شيوعية ، دون أن يقسمن أيمان الرهبنة ، ويعُلن أنفسهن ينسج الصوف وعمل المخرمات . وأنشئت للرجال طائفة أخرى من بيوت الله مماثلة لهذا البيت ، وأطلق الرجال على أنفسهم اسم (البيجارد Beghard) أى الرجال المتهتهين وعلى النساء اسم البجوين (أى المتهتهات) . وكانت هذه الجماعات تندد بالكنيسة ، كما يندد بها الولدنيون ، لافتنائها الأملاك ، وسلكوا هم أنفسهم سبيل الفقر الاختيارى . وظهرت فى أجزبرج عام ١٢٦٢ شيعة أخرى هى شيعية إخوان الروح الحر وثبتت أصولها فى المدن القائمة على ضفاف نهر الرين . وكانت كلتا الحركتين تدعى أنها تتلقى الوحى الصوفى الذى يعفيها من سيطرة الكهنوت ، بل يعفيها فوق ذلك من سيطرة الدولة والقانون الأخلاقى(٨٨) . وتضافرت الدولة والكنيسة على قمع الحركتين ، فاندفعتا إلى الهمل فى الخفاء ، وكانتا تظهران للعمل جهرة عدة مرار بأسماء جديدة ، وكانتا من أسباب نشأة شيعة المنكرين للتعميد وغيرها من الشيع المتطرفة التى ظهرت فى أيام الإصلاح الدينى وممن بعثوا روح الحماسة فى هذه الشيع .

وصارت ألمانيا أرض التصوف المحبوبة فى بلاد الغرب ، ففيها عاشت هلدجارد البنجنية Hildegarde of Bingen (١٠٩٩ — ١١٧٩) « سيبيلة الرين » the Sibyle of the Rhine كل حياتها البالغة اثنين وثمانين عاما ، عدا عامين اثنين ، راهبة بندكتية ، واختتمتها رئيسة دير للنساء على روبرتسبرج Rupertsburg . وكانت مزيجا غير مألوف من حسن الإدارة والرؤى الخيالية ، تقية ومتطرفة ، شاعرة وعالمة ، طبيبة وقديسة ؛ وكانت تراسل البابوات والملوك ، وتكتب إليهم دائما بنغمة صاحبة السلطان الملهم ، فى لغة لاتينية رصينة قوية قوة لغة الرجال . وقد نشرت عدة كتب فى الرؤى الدينية (Scivias) ادعت فيها معاونة الذات العلية ، وكان رجال الدين يغضبون حين يستمعون إليها لأن حديثها الملهم كان نقداً لاذعا لثراء الكنيسة وفسادها . قالت هلدجارد بعبارات تفيض بالآمال الخالدة .

إن للعدالة الإلهية ساعتها المحدودة ... وإن أحكام الله لتوشك أن تنفذ ؛ وستنهار الإمبراطورية والبابوية معاً بعد أن تتردیا فی هوة الإلحاد . . . ولكن أمة جديدة ستقوم على أنقاضهما . . وستضم الوثنيين ، واليهود ، وعبّاد الدنيا ، والكفرة جميعاً ، وسيسود العالَمَ ربيعُ الدهر والسلام بعد مولده الجديد ، ويعود الملائكة وهم واثقون إلى السكنى بين الآدميين[٨٩] .

وبعد مائة عام من ذلك الوقت أثارت إليصابات الثورنجيائية (١٢٠٧ — ١٢٣١) بلاد المجر بحياتها القصيرة التى قضتها زاهدة متبتلة . وإليصابات هذه ابنة الملك اندرو Andrew وقد تزوجت وهى فى الثالثة عشرة من عمرها بأمير ألمانى ، وكانت أمّاً فى الرابعة عشرة ، وأرملة فى سن العشرين . ونهب أخو زوجها مالها وطردها فى فقر مدقع ؛ فلجأت إلى حياة الورع والتجوال ، ووهبت حياتها للفقراء ، وكانت تؤوى النساء المصابات بالجذام ، وتغســـل جروحهن . وكانت هى الأخرى تتراءى لها رؤى سماوية ، ولكنها لم تكن تذيعها ، ولم تدع لنفسها أية قوى خارقة ولما التقت بكنراد الماربرجى Conrad of Marburge عضو محاكم التحقيق الشرس افتتنت افتتاناً وبيلا بقســـوته فى إخلاصه للدين ، فأضحت جاريته المطيعة ، يضربها إذا حادت قيد شعرة عما يعتقد أنه هو الصلاح والتقى ، فكانت تخضع له خضوع الأذلاء ، وتفرض على نفسها ضروباً شديدة من التقشف عجلت منيتها ولما تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها[٩٠] . وبلغ من اشتهارها بالتقوى أن من كان يسير فى جنازتها من أتباعها المخلصين الذين كادت تذهب النشوة بعقولهم قصوا شعر رأسها ، وقطعوا أذنيها ، وحاموا ثديها ليتخذوها مخلفات مقدسة[٩١] . ودخلت إليصابات أخرى الدير النسائى البندكتى فى شنو Schonau القريبة من بنجن وهى فى الثانية عشر من عمرها (١١٤١) ،

وعاشت فيه حتى توفيت فى عام ١١٦٣ . وكان ضعفها الجسمى ، وإسرافها فى زهدها يسببان لها نوبات من الإغماء ، تتلقى فيها إلهاماً من مختلف الأولياء المتوفين ، كلهم تقويباً من المعادين للكنيسة . ومما قاله لها ملكها الحارس « إن كرامة الله قد ذبلت ، وإن رئيس الكنيسة لمريض ، وإن أعضاءها لأموات ... أى ملوك الأرض ! إن ظلمكم الصارخ قد ارتفع دويه حتى وصل إلىّ أنا نفسى »(٩٢) .

وعلت موجة التصوف فى أواخر ذلك العهد فى ألمانيا ، وكان من متصوفتها مستر إكهارت Meister Eckhart الذى وُلد حوالى عام ١٢٦٠ ، والذى نضجت آراؤه الصوفية فى ١٣٢٦ ، والذى حوكم وتوفى فى عام ١٣٢٧ . وواصل تلميذاه سوسو Suso وتولر Tauler دعوته إلى وحدة الوجود الصوفية ، وكانت هذه التقاليد ، تقاليد التقوى غير الكنسية ، أحد الينابيع التى فاضت منها حركة الإصلاح الدينى .

وكانت الكنيسة فى العادة تحمل هؤلاء المتصوفين وتقبلهم فى كنفها . نعم إنها لم تكن تسمح بأن يخرج أحد خروجاً خطيراً عن قواعدها الرسمية ، أو تجيز الفردية الفوضوية التى تدعو إليها بعض الشيع الدينية ، ولكنها كانت ترضى عن قول الصوفية إنهم يتصلون اتصالا مباشراً بالله عز وجل ، وتستمع فى غير غضب إلى تنديد الأولياء بأخطائها الآدمية . وكان كثيرون من رجال الدين ، ومنهم ذوو المناصب العالية فى الكنيسة ، يعطفون على ناقديهم ، ويعترفون بما فى الكنيسة من عيوب ، ويتمنون أن لو استطاعوا هم أيضاً أن يتخلوا عن الأدوات والأعمال التى يضطلعون بها فى الشئون السياسية الدنيوية وما فيها من أدران تلوثهم ، ويستمتعوا بما فى الأديرة من طمأنينة وسلام ، يطعمون من تقوى

الشعب ، ويحميهم سلطان الكنيسة . ولعل هؤلاء الصابرين من رجال الكنيسة هم الذين ثبّتوا قواعد الدين المسيحى بين زعازع الإلهام الجنونى التى كانت تهدد العقول فى العصور الوسطى بأشد الأخطار من حين إلى حين . وكلما أمعنا فى دراسة أقوال متصوفة القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لاح لنا أن الاستمساك بأصول الدين القويم كثيراً ما كان هو الواقى من انتشار الخرافات المعدية ، وأن الكنيسة من إحدى النواحى عقيدة — كما كانت الدولة قوة — أخرجت من الفوضى نظاماً ليحافظ على سلامة عقول الناس .

الفصل السابع

البابا المنكود

لما ارتقى جريجورى الثانى عرش البابوية فى عام ١٢٧١ كانت الكنيسة مرة أخرى فى عنفوان قوتها . ولم يكن جريجورى بابا فحسب ، بل كان إلى هذا مسيحياً متمسكا بآداب المسيحية : كان رجل سلام ومحبة ، ينشد العدالة لا النصر . وكان يأمل أن يسترد فلسطين بجهد واحد جامع ، فأقنع البندقية ، وجنوى ، وبولونيا بأن تضع حدا للحروب القائمة بينها ، وعمل على إن يختار رودلف هبسبرج Rudolf of Hapsburg إمبراطوراً ، ولكنه خفف بلطفه ورقته غضب المهزومين من المطالبين بالعرش ، ووفق بين طائفتى الجلف Guelf والجبلين Ghibelline فى فلورنس وسينا المنقسمتين على نفسيهما ، وقال لمؤيديه من الجلف « إن أعداءكم جبلينيون ولكنهم مع ذلك رجال ، ومواطنون ، ومسيحيون »(٩٣) . ودعا أحبار الكنيسة الى مجلس يعقد فى ليون (١٢٧٤) ؛ وجاءه فى عام ١٥٧٠ زعماء الكنيسة وأرسلت كل دولة عظمى ممثلا لها ، وبعث إمبراطور الروم برؤساء الكنيسة اليونانية ليؤكد من جديد خضوعها إلى الكرسى البابوى فى رومة وأنشد رجال الدين اللاتين واليونان معاً نشيد الفرح والغبطة . ودُعى الأساقفة أن يتقدموا بما فى الكنيسة من عيوب تحتاج إلى الإصلاح ، فلبوا الدعوة فى صراحة منقطعة النظير(٩٤) ، وسنت القوانين التى أريد بها تخفيف حدة هذه الشرور . واتحدت أوربا كلها اتحاداً رائعاً لتقوم بمجهود موحد ضد المسلمين . ولكن جريجورى مات وهو عائد إلى رومة (١٢٧٦) وشغلت السياسة الإيطالية خلفاءه فلم يستطيعوا تنفيذ ما وضعه من خطط .

ومع هذا فإنه لما اختير بنيفاس الثامن بابا فى عام ١٢٩٤ كانت البابوية

لا تزال أقوى الحكومات الأوربية ، وأحسنها تنظيما ، وخيرها إدارة ، وأنماها موارد . وكان من سوء حظ الكنيسة ، فى هذا الوقت العصيب الذى أوشك أن يختتم به قرن من القوة والتقدم ، أن جلس على أقوى العروش فى العالم المسيحى رجل كان له من فساد الخلق ، والغطرسة الشخصية ، والحرص على السلطان حرصا خاليا من الكياسة ، بقدر ما كان له من حب الكنيسة ، وإخلاص فى المقصد . ولم يكن هذا الرجل خلوا من الفضائل الفاتنة : فقد كان محبا للعلوم ، يضارع إنوسنت الثالث فى تجاربه القانونية ، وثقافته الواسعة ؛ أنشأ جامعة رومة ، وأعاد مكتبة الفاتيكان ووسع نطاقها ، وعين چيتو Giorro وأرنلفو دى كمبيو Arnolfo di Cambio فى مناصب عالية ، وساعد بما له على إنشاء واجهة كنيسة أرڤيتو Orviero الرائعة المدهشة .

وكان قد مهد السبيل لتسنمه عرش البابوية بأن أقنع سلستين الخامس Celesrine V الورع العاجز أن ينزل عن العرش بعد أن جلس عليه خمسة أشهر — وكان هذا عملا لم يسبق له مثيل من قبل . وأحاط بنيفاس من بادئ الأمر بالبغض منذ البداية . وأراد أن يحبط كل ما عساه أن يدبر من خطط لإعادة سلستين ، فأمر بأن يحجز هذا الشيخ البالغ من السن ثمانين عاماً فى رومة ؛ ولما فر سلستين ، قبض عليه ، ثم فر مرة ثانية ، وقضى عدة أسابيع يجول فى أنحاء أپوليا ، حتى وصل إلى البحر الأدرياوى ، وحاول أن يعبره إلى دمياط ، ولكن القارب الذى كان يركبه تحطم به ، وقذفه البحر إلى إيطاليا وجىء به أمام بنيفاس ، وحكم عليه البابا بالسجن فى حجرة ضيقة فى فرنتينو Ferintino ، ومات بها بعد عشرة شهور من بداية سجنه (١٢٩٦)[٩٥] .

وكان مما زاد طبع البابا الجديد حدة أن أصيب بسلسلة متتابعة الحلقات من الهزائم الدبلوماسية والانتصارات الكثيرة الأكلاف . فقد حاول أن يثنى فردريك صاحب أرغونة عن قبول عرش صقلية ، ولما أصر فردريك على قبوله

حرمه بنيفاس ، وأصدر قرار التحريم على الجزيرة (١٢٩٦) . ولم يبال الملك ولا الشعب بهذا العقاب[٩٦] ، واضطر بنيفاس فى آخر الأمر أن يعترف بفردريك . وأعد العدة لحرب صليبية بأن أمر البندقية وجنوى بعقد هدنة ، ولكنهما رفضتا توسطه فى الصلح وواصلتا الحرب ثلاث سنين أخرى ، ولما عجز عن أن يقيم فى فلورنس نظاماً يوافق مصالحه أصدر قراراً بحرمان المدينة ، ودعا شارل صاحب ڤالوا أن يدخل إيطاليا ويهدئها (١٣٠٠) . ولم يفلح شارل إلا فى كسب حقد الفلورنسيين عليه وعلى البابا . وأراد بنيفاس أن يبسط راية السلم فى ولاياته البابوية فحاول أن يفض النزاع القائم بين أعضاء أسرة كولنا Colonna القوية ؛ ولكن پيترو Pietro وجاكوپو Jacopo ، وكلاهما كردينال ، رفضاً عروضه ففصلهما ، وحرمهما من الدين (١٢٩٧) ، فما كان من الكردينالين المتمردين إلا أن علقا على أبواب الكنائس الرومانية ، ووضعا على مذبح القديس بطرس ، منشوراً يطلبان فيه إلى البابا أن يدعو مجلساً كنسياً عاماً . وكرر بنيفاس قرار الحرمان ، وضم فيه إليهما خمسة آخرين من الخارجين عليه ، وأمر بمصادرة أملاكهما ، وغزا أملاك أسرة كولنا بالجيوش البابوية ، واستولى على حصونها ، ودك أبنية پلستينا Palestina ، وأمر بنثر الملح فوق خرباتها . واستسلم العصاة ، وعفا عنهم ، ثم ثاروا مرة أخرى وهزمتهم جيوش البابا للمرة الثانية ، وفروا من الولايات البابوية ، وأخذوا يدبرون خطط الانتقام .

وبينا كان بنيفاس يلاقى هذه المحن فى إيطاليا إذ واجهته على حين غفلة أزمة شديدة فى فرنسا . فقد اعتزم فليب الرابع أن يوحد مملكته ، فاستولى على ولاية غسقونية الإنجليزية ؛ وأعلن إدورد الأول عليه الحرب (١٢٩٤) ؛ وأراد كلا الملكين أن يجمع المال الذى يستعين به على قتال عدوه ، فقررا أن يفرضا الضرائب على أملاك الكنيسة ورجالها . وكان البابوات قد أذنوا بفرض هذه الضرائب للاستعانة بها فى الحروب الصليبية ، ولكنهم لم يأذنوا بها قط لإنفاقها

فى حرب زمنية خالصة . كذلك كان رجال الدين الفرنسيون قد اعترفوا بأن من واجبهم أن يشتركوا بالمال فى الدفاع عن الدوله التى تحمى أملاكهم ، ولكنهم كانوا يخشون أنه إذا أطلق حق الدولة فى فرض الضرائب من كل قيد ، أصبح ذلك قوة فى يدها تستخدمه للهدم . وكان فليب قد أضعف من قبل مكانة رجال الدين فى فرنسا ؛ فقد أخرجهم من المحاكم الإقطاعية والملكية ، ومن مناصبهم القديمة فى الإدارة الحكومية وفى مجلس الملك . وأزعج هذا الاتجاه الرهبان السسترسيين فمنعوا عن فليب خمس إيرادهم الذى طلبه ليستعين به فى حرب إنجلترا ، وبعث رئيسُ الجماعة يستنجد بالبابا . وكان لابد لبنيفاس أن يسير بحذر لأن فرنسا كانت من زمن بعيد أقوى عماد للبابوية فى كفاحها مع ألمانيا والإمبراطورية ، ولكنه أحس بأن الأساس الاقتصادى لسلطان الكنيسة وحريتها لن يلبث أن ينهار إذا ما انتزع منها إيرادها بفرض ضرائب من قبل الدولة على أملاك الكنيسة دون موافقة البابا . ولهذا أصدر فى شهر فبراير من عام ١٢٩٦ مرسوماً بابويا يعد من أشهر ما أصدره البابوات من مراسيم فى التاريخ الكنسى كله ، وسمى هذا المرسوم بالكلمتين الأولين منه Clericis laicos ، وكانت جملته الأولى اعترافاً غير حكيم ، وكانت نغمته تذكر قارئه بصواعق جريجورى السابع :

يقول الأقدمون إن العلمانيين شديدو العداء لرجال الدين ؛ وتجاربنا لاتترك مجالا للشك فى صدق هذا القول فى الوقت الحاضر . . . وإنا لنقرر بعد استشارة إخواننا ، وبمقتضى سلطتنا الرسولية أنه إذا أدى أحد من رجال الدين . . . إلى إنسان من العلمانيين . . . أى جزء من إيراده أو أملاكه . . . بغير إذن من البابا ، عرض نفسه للحرمان من الدين ... ونقرر أيضاً أن كل إنسان أياً كانت سلطته أو مرتبته يطلب هذه الضرائب أو يتسلمها ، أو يغتصب أملاك الكنائس أو رجال الدين ، أو يتسبب فى اغتصابها . . . يتعرض بذلك للحرمان(٩٧) .

أما فيليب فكان قوى الاعتقاد بأن ما للكنيسة فى فرنسا من ثروة عظيمة يجب أن تتحمل نصيبها فى نفقات الدولة ، ولهذا عارض مرسوم البابا بأن حرم تصدير الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، والطعام ، وبأن حرم التجار أو المبعوثين الأجانب البقاء فى فرنسا . وحالت هذه الإجراءات دون وصول المال إلى البابوية من أهم مصادر إيرادها ، وأخرجت من فرنسا عمال البابا الذين كانوا يجمعون المال لحرب صليبية فى الشرق . ولهذا نكص بنيفاس فى مرسومه ineffabirlis Amor (سبتمبر عام ١٢٩٦) ، ووافق على تبرع رجال الدين بالمال مختارين فى سبيل الدفاع الضرورى عن الدولة ، واعترف بحق الملك فى أن يقرر هو هذه الضرورة . وألغى فيليب أوامره الانتقامية ، وارتضى هو وإدورد أن يكون بنيفاس — لا بوصفه بابا ، بل بوصفه شخصاً عاديا — حكما فى النزاع القائم بينهما . وحكم بنيفاس لصالح فيليب فى معظم أوجه النزاع ؛ وخضعت إنجلترا لحكمه إلى حين ، واستمتع المحاربون الثلاثة بفترة قصيرة من السلم .

وقرر بنيفاس أن تكون سنة ١٣٠٠ سنة عيد ، ولعله أراد بذلك أن يملأ الخزانة البابوية ، بعد أن نقصت إيراداتها من إنجترا وفرنسا ، أو لعله أراد أن يجمع المال اللازم لحرب يستعيد بها صقلية بوصفها إقطاعية بابوية . ولحرب أخرى يوسع بها الولايات البابوية حتى تشمل تسكانيا(٩٨) . ونجح فى هذه الخطة نجاحاً تاماً ؛ فلم تشهد رومة من قبل جموعاً كالتى شهدتها فى ذلك الوقت . وفرضت حينئذ ، ولعلها فرضت للمرة الأولى ، قواعد المرور للإشراف على حركات الناس(٩٩) . وأحسن بنيفاس ومساعدوه إدارة شئون المدينة فجلبوا إليها الطعام موفورا وبيع فيها بأثمان معتدلة تحت إشراف البابا ورجاله . وكان من المزايا التى استمتع بها البابا أن الأموال الكثيرة التى جمعت بهذه الطريقة لم تكن مخصصة لغرض بالذات ، بل كان فى وسعه أن يستخدمها كما يشاء . وبلغ بنيفاس وقتئذ ذروة مجده رغم ما ناله من أنصاف الانتصارات وما أحاق به من الهزائم المنكرة

لكن المنفيين من آل كولنا كانوا فى هذا الوقت عينه يسلون فليب بقصص عن شره البابا وظلمه ، وضلالاته الشخصية الخفية . ثم حدث نزاع بين أعوان فليب وبرنارد سيسر Bernard Saisser المندوب البابوى . وقبض على المندوب لاتهامه بأنه يحرض على الفتنة ، وقدم للمحكمة الملكية ، وأدين ، ووضع تحت حراسة رئيس أساقفة نربونة (١٣٠١) . وارتاع بنيفاس للسرعة التى حوكم بها مندوبه ، فطلب أن يطلق سراح سيسر على الفور ، وأمر رجال الدين الفرنسيين أن يمتنعوا عن تسليم الإيرادات الكنسية للدولة ، ثم طلب إلى فيليب فى مرسومه المسمى **اسمع يا ولدى** Ausculta fili (ديسمبر سنة ١٣٠١) أن يستمع فى خشوع إلى خليفة المسيح بوصفه الملك الروحى على جميع ملوك الأرض ؛ واحتج على محاكمة رجل من رجال الدين أمام محكمة مدنية ، وعلى الاستمرار فى استخدام أموال الكنيسة فى الأغراض غير الدينية ، وأعلن أنه سيدعو الأساقفة ورؤساء الأديرة فى فرنسا ليتخذوا الإجراءات « الكفيلة بالمحافظة على حريات الكنيسة وبإصلاح المملكة وتقويم الملك »[١٠٠]. وحينما عرض المرسوم على فليب ، اختطفه كونت أرتوا Artois من يدى رسول البابا وألقاه فى النار . وصودرت نسخة منه كانت معدة لأن ينشرها رجال الدين الفرنسيون . وثارت ثائرة الطرفين حين نشرت وثيقتان زائفتان قيل إن إحداهما صادرة من بنيفاس إلى فليب تطلب إليه أن يطيعه فى كل الشئون حتى الزمنية منها ، والأخرى من فليب إلى بنيفاس تُبلغ « حماقتك العظيمة أننا لانخضع لإنسان ما فى الشئون الزمنية » وسرعان ما ساد الاعتقاد بأن هاتين الوثيقتين المزورتين صحيحتان[١٠١] .

وفى اليوم الحادى عشر من فبراير سنة ١٣٠٢ حرق مرسوم « **اسمع يا ولدى** » رسميا فى باريس فى حضرة الملك وجمهور كبير . وأراد فليب أن يستبق المجلس الكنسى الذى يريد بنيفاس عقده فدعا الطبقات الثلاث فى مملكته

إلى الاجتماع فى باريس فى شهر إبريل . وكتبت كل طبقة بمفردها من طبقات الأمة الثلاث — الأشراف ، ورجال الدين ، والعامة — فى هذا المجلس ، مجلس الطبقات ، الأول من نوعه فى تاريخ فرنسا ، كتبت كل طبقة إلى رومة تدافع عن الملك وعن سلطته الزمنية ، وحضر نحو أربعة وخمسين من المطارنة الفرنسيين مجلس رومة الذى عقد فى شهر أكتوبر من عام ١٣٠٢ على الرغم من حظر فليب ومصادرة أملاكهم . وأصدر هذا المجلس القرار المسمى Unamsanctum الذى حدد فيه مطالب البابوية تحديداً صريحاً صراحة تلفت الأنظار . وجاء فى هذا المرسوم أنه لاتوجد إلا كنيسة واحدة لا نجاة لأحد فى خارجها ، وأن ليس للمسيح إلا جسد واحد له رأس واحد لا رأسان ، وأن هذا الرأس هو المسيح وممثله البابا الرومانى ، وأن هناك سيفين أى قوّتين القوة الروحية والقوة الزمنية ؛ الأول تحمله الكنيسة ، والثانى يحمله الملك نائباً عن الكنيسة ، ولكنه يحمله تبعاً لإرادة القس وبإذن منه . والسلطة الروحية فوق السلطة الزمنية ، ومن حقها أن ترشدها إلى أسمى غاياتها ، وأن تحاكمها إذا ارتكبت إثماً . واختتم المرسوم بالعبارة الآتية : « ونعلن ، ونحدد ، وننطق بأن من الضرورى للنجاة أن يخضع الناس جميعاً للرئيس الدينى الرومانى »[١٠٢] .

وكان رد فليب أن دعا جمعيتين إلى الانعقاد (فى شهرى مارس ويونية من عام ١٣٠٣) وأن أصدرت الجمعيتان وثيقة اتهم فيها بنيفاس رسميا بأنه ظالم ، وساحر ، وكافر[١٠٣] ، وطلبت أن يخلعه مجلس عام للكنيسة . وبعث الملك وليم نوجارت William Nogaret كبير رجال القانون عنده إلى رومة ليبلغ البابا ما يطلبه الملك من دعوة مجلس عام . وكان البابا وقتئذ فى القصر البابوى بأنانى Anagni فأعلن أن البابا وحده هو الذى يحق له أن يدعو مجلساً عاما ، وأعدّ مرسوماً يحرم فيه فليب ويصب اللعنة على فرنسا . وقبل أن يصدره سار وليم نوجارت وسيارا كولنا Siarra Colonna على رأس ألفين من الجنود المرتزقة

واقتحما القصر ، وقدما إلى البابا رسالة فيليب ، وطلبا إليه أن يوقعها (٧ سبتمبر سنة ١٣٠٣) ، فرفض بنيفاس هذا الطلب . وتقول رواية « موثوق بصحتها أعظم الثقة »[١٠٤] إن سيراً لطم الحبر الأعظم على وجهه وإنه كاد يقتله لولا تدخل نوجات . وكان بنيفاس وقتئذ فى الخامسة والسبعين من عمره ، ضعيف الجسم ، ولكنه ظل يتحدى خصومه . وبقى ثلاثة أيام سجيناً فى قصره والجنود المرتزقون ينهبونه . ولكن أهل أنانى يؤيدهم أربعمائة فارس من عشيرة أرسينى Orsini فرقوا الجنود المرتزقين وأعادوا إلى البابا حريته . ويلوح أن سجانيه لم يقدموا له طعاماً مدى الثلاثة الأيام السابقة على تحريره ؛ لأنه وهو واقف فى السوق سأل : « إن كانت هناك امرأة صالحة ترضى أن تقدم لى صدقة من النبيذ والخبز ، فإنى أمنحها بركة الله وبركتى » . وقاده فرسان الأرسينى إلى رومة وإلى الفاتيكان ، وهناك انتابته حمى شديدة مات منها بعد أيام قليلة (فى الحادى عشر من شهر أكتوبر سنة ١٣٠٣) .

وحرم خليفته بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ — ١٣٠٤) نوجارت ، وسيارا كولنا ، وثلاثة عشر غيرهما من الرجال رآهم يقتحمون القصر فى أنانى . ومات بندكت بعد شهر من ذلك الوقت فى بروجيا ، وربما كان أحد الجبلين الإيطاليين قد دس له السم[١٠٥] . ووافق فليب على أن يؤيد برتراند ده جو Berlrand de Got رئيس أساقفة بوردو للجلوس على كرسى البابوية إذا نهج سياسة المصالحة ، وعفا عمن حرموا من الدين لهجومهم على بنيفاس ، وسمح بأن تجبى من رجال الدين الفرنسيين ضريبة دخل سنوية مقدارها عشرة فى المائة مدة خمس سنين ، وأن يعيد أفراد أسرة كولنا إلى مناصبهم ويرد إليهم أملاكهم . وأن يشهر بذكرى بنيفاس[١٠٦] . ولسنا نعرف إلى أى حد وافق برتراند على هذه المطالب ؛ وكل ما نعلمه أنه اختير بابا ، وتسمى باسم كلمنت الخامس (١٣٠٥) . وأنذره الكرادلة بأنه ان يكون آمناً على حياته فى رومة ، فنقل

كلمنت كرسى البابوية إلى أڤنيون القائمة على الضفة الشرقية لنهر الرون ، فى خارج الحد الشرقى لفرنسا وعلى بعد قليل منه (١٣٠٩) وانتقل إليها بعد تردد قليل ، وربما كان ذلك أيضاً بعد أن وصله اقتراح مريح من فليب . وهكذا بدأ « الأسر البابلى » للبابوات الذى دام ثمانية وستين عاماً واستسلام البابوية لفرنسا ، بعد أن حررت نفسها من ألمانيا .

وأصبح كلمنت ، رغم إرادته الضعيفة ، أداة ذليلة فى يد فليب الذى لا حد لمطامعه ؛ فغفر للملك ذنوبه ، وأعاد رجال كولنا إلى مناصبهم ، وسحب موسوم Clercis laicoa وأجاز نهب أموال فرسان المعبد ، ووافق أخيرا (١٣١٠) على محاكمة بنيفاس بعد موته على أيدى مجمع كنسى عقد فى جروسو Groseau القريبة من أڤنيون . وشهد ستة من رجال الدين فى التحقيق المبدئى الذى أجرى أمام البابا ومأموريه أنهم سمعوا بنيفاس يشير قبل سنة من توليه منصبه الدينى إلى أن كل القوانين التى يفترض الناس أنها من عند الله قد اخترعها بعضهم لكى يلزموا العامة بأن يسلكوا مسلكا حسناً لخوفهم من الجحيم ، وإلى أن من « البلاهة » أن نعتقد أن الله واحد وثلاثة فى آن واحد ، أو أن عذراء قد ولدت طفلا ، أو أن الله قد صار إنسانا ، أو أن الخبز يمكن أن يصبح جسم المسيح ، أو أن هناك حياة أخرى مستقبلة . « هذا ما أومن به وما أعتقده ، كما يؤمن به ويعتقده كل إنسان متعلم . أما السوقة فيعتقدون غير هذا ، وعلينا أن نتكلم كما يتكلم السوقة ، وأن نفكر ونعتقد كما تعتقد القلة وتفكر » . ونقل هؤلاء الستة عن بنيفاس هذه الأقوال ، وأعاد هذه الشهادة ثلاثة منهم بعد أن سئلوا فيما بعد . ونقل رئيس دير القديس چيلز St. Giles القائم فى سان چمينو San Gemino عن بنيفاس حين كان الكردينال جيتانى Gaetani أنه أنكر بعث الجسم والروح ، وأيد هذه الشهادة عدد آخر من رجال الدين . ونقل أحد رجال الدين عن بنيفاس أنه قال عن القربان المقدس « إنه ليس إلا فطيرة » . واتهم بنيفاس

رجال كانوا قبل ذلك من أفراد بيته بأنه كانت له كثير من الصلات الجنسية الآثمة ، الطبيعية منها وغير الطبيعية ، واتهم غيرهم هذا المتشكك المزعوم بأنه حاول الاتصال السحرى بـ « قوى الظلام »[١٠٧] .

وأقنع كلمنت فليب قبل بدء المحاكمة الفعلية أن يترك مسألة إجرام بنيفاس إلى مجلس ڤينا العام الذى سيعقد فيما بعد . فلما عقد هذا المجلس (١٣١١) مثّل أمامه كرادلة وشهدوا بأن البابا المتوفى كان مستمسكا بالدّين القويم وبمكارم الأخلاق ، وألقى فارسان بقفازيهما متحديين ومؤيدين براءته عن طريق الاقتتال . لكن أحداً لم يقبل هذا التحدى وأعلن المجلس انتهاء المحاكمة .

الفصل الثامن

عودة على بدء

تكشف الأدلة التى قدمت ضد بنيفاس ، صادقة كانت أو كاذبة ، عن تيار التشكك الذى كان يجرى فى الخفاء على عصر الإيمان . وكذلك تدل الصفعة — المادية أو السياسية — التى وجهت إلى بنيفاس فى أنانى بمعنى من معانيها على بداية « العصر الحديث » : فقد كانت انتصاراً للقومية على ما فوق القومية ، وللدولة على الكنيسة ، ولقوة السيف على سحر الكلام . ذلك أن كفاح الكنيسة ضد آل هوهنستوفن وإخفاق الحروب الصليبية قد أضعفنا من قوتها ، فى الوقت الذى زاد فيه انهيار الإمبراطورية من قوة إنجلترا وفرنسا ، كما أثرت فرنسا باستيلائها على لانجويدك بمساعدة الكنيسة . ولربما كانت مناصرة الشعب لفليب الرابع على بنيفاس الثامن دليلا على غضب هذا الشعب من غلو محاكم التحقيق والحملة الصليبية الألبجنسية ؛ فقد قيل إن محاكم التحقيق حرقت بعض آباء نوجارت[١٠٨] ، ولم يكن بنيفاس يدرك ، وهو يتورط فى هذه المنازعات الكثيرة ، أن أسلحة البابوية قد تثلمت من الإفراط فى استخدامها ؛ ثم إن الصناعة والتجارة قد أنشأتا طبقة من الناس أقل تقوى من طبقة الزراع ، وأن الحياة والتفكير قد نزعا نزعة زمنية غير دينية ، وأخذت الطبقات العلمانية تدرك أهميتها ، وقبل أن تمضى سبعون سنة كانت الدولة قد طوت الكنيسه تحت جناحيها .

وإذا ما ألقينا نظرة شاملة على المسيحية اللاتينية ، كان أهم ما ينطبع فى ذهننا منها هو ما بين شعوبها المختلفة من وحدة نسبية فى العقيدة الدينية ، وانتشار سلطان الكنيسة الرومانية الواسع ورجالها فى كل مكان انتشاراً أكسب أوربا

الغربية — أوربا غير الصقلبية ، وغير البيزنطية — وحدة فى العقل والأخلاق لم ير لها قط مثيل بعد ذلك الوقت . ولسنا نعرف فى التاريخ كله نظاما فى غير هذه الرقعة من الأرض كان له مثل هذا الأثر العظيم فى مثل هذا العدد من الناس ولمثل هذا الزمن الطويل . فقد دام سلطان الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية على أملاكهما الواسعة من أيام پمپي الى أيام ألريك Alaric أى أربعمائة وثمانين عاما ؛ ودامت إمبراطووية المغول والإمبراطورية البريطانية نحو مائة عام ؛ أما الكنيسة الكاثوليكية الرومانيـــة فقد ظلت صاحبة السلطة العليا فى أوربا من موت شارلمان (٨١٤) إلى موت بنيفاس الثامن (١٣٠٣) أى ٤٨٩ عاماً . ويبدو أن تنظيمها وإدارتها لم يبلغا من الكفاية ما بلغاه فى الإمبراطورية الرومانية ؛ كذلك لم يؤت رجالها من القدرة والثقافة مثل ما أوتى الرجال الذين حكموا الولايات والمدن للقياصرة ؛ ولكن الكنيسة ورثت خليطاً من الهمج المسلوبى العقول ، وكان عليها أن تبذل الجهود المضنية لتشق لها طريقاً تعود به إلى بسط النظام ونشر التعليم . ولقد كان رجالها ، رغم هذه الظروف ، خير الرجال تعلماً فى ذلك العصر ، وكانوا هم الذين قدموا للناس فى أوربا الغربية التعليم الوحيد المستطاع فى خلال القرون الخمسة التى كان لها فيها السيادة والسلطان . وكانت محاكمها تقدم للناس أعدل ضروب العدالة فى أيامها . فكانت المحكمة البابوية ، المرتشية تارة والنزيهة تارة أخرى ، إلى حد ما ، محكمة عالمية تحكم فى فض المنازعات الدولية ، وتضييق نطاق الحروب . ولسنا ننكر أن هذه المحكمة كانت على الدوام مسرفة فى نزعتها الإيطالية ، ولكن عقول الإيطاليين كانت فى تلك القرون أحسن العقول تدريباً ، وكان فى وسع أى إنسان أن يرقى إلى عضوية تلك المحكمة من أية طبقة ، ومن أية أمة فى العالم المسيحى اللاتينى .

ولقد كان من الخير أن يكون فوق دول أوربا وملوكها ، رغم أساليب الخداع التى تلجأ إليها عادة السلطة البشرية الجماعية ، سلطة عليا تستطيع محاسبة

هذه الدول وأولئك الملوك ، وتخفف من حدة منازعاتها ومنازعاتهم . وإذا كان لا بد من قيام دولة عالمية ، فهل ثمة مقر لها يبدو أليق من عرش القديس بطرس ، يستطيع الناس مهما يكن من ضيقه أن يتطلعوا منه بعين قارئة ، من ورائها أحقاب طوال ؟ وهل ثمة قرارات أكثر قبولا عند الناس فى سلام ، وأيسر تنفيذاً ، من قرارات حبر من الأحبار يجله جميع سكان أوربا الغربية ويرون أنه خليفة الله فى أرضه ؟ وحسبنا دليلا على ما كان لقرارات هذه السلطة من قوة أنه لما خرج لويس التاسع إلى الحرب الصليبية فى عام ١٢٤٨ ، اشتد هنرى الثالث ملك إنجلترا فى مطالبه من فرنسا واستعد لغزوها . فأنذر البابا إنوسنت الرابع إنجلترا بالحرمان إذا أصر هنرى على مطالبه ، ونكص هنرى على عقبيه . ويقول هيوم المتشكك إن سلطان الكنيسة كان ملجأ حصينا من عسف الملوك وظلمهم(١٠٩)، ولو أن الكنيسة اقتصرت فى استخدام سلطانها على الأغراض الروحية والخلقية ، ولم تستخدمه قط لتحقيق الأغراض المادية ، لحققت المثل الأعلى الذى كان يرتجيه جريجورى السابع — ولجعلت سلطانها الأخلاقى يعلو على قوى الدول المادية . وكاد حلم جريجورى هذا يتحقق حين ضم إربان الثانى بشتات العالم المسيحى لقتال الاتراك ؛ فلما أن أطلق إنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ، واسكندر الرابع ، وبنيفاس الثامن اسم الحروب الصليبية المقدسة على حروبهم ضد الألبجنسيين ، وفردريك الثانى وآل كولنا ، فلما فعلوا هذا تحطم المثل الأعلى العظيم فى أيدى البابوات الملطخة بدماء المسيحيين .

وكانت الكنيسة إذا لم يتهددها خطر تصطنع التسامح الكثير مع أصحاب الآراء المخالفة ، بل وآراء الضالين ، وسوف نجد ما لم نكن نتوقعه من الحرية الفكرية بين فلاسفة القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بل سوف نجد هذه الحرية بين أساتذة الجامعات المرخصة من قبل الكنيسة ، والخاضعة لإشرافها ؛ وكل ما كانت تطلبه أن يكون نقاشهم مقصوراً على المتعلمين ، ومفهوما منهم

وحدهم ، وألا يتخذ صورة الدعوة الثورية للناس بأن ينبذوا عقيدتهم وكنيستهم(١١٠) . ويقول كاتب هو أكثر نقاد الكنيسة المحدثين نشاطا ، إن « الكنيسة إذ تضم السكان أجمعين ، تضم كذلك كل صنف من أصناف العقول ، من أكثر العقول تخريفا إلى أكثرها لا أدرية ، وإن كثيراً من العناصر التى لم تكن مستمسكة بالدين الرسمى ، كانت تعمل تحت ستار الامتثال الرسمى بحرية أوسع مما يظن الناس عادة(١١١) .

وجملة القول أن الصورة التى نرسمها فى أذهاننا للكنيسة اللاتينية فى العصور الوسطى هى أنها منظمة معقدة التركيب ، تبذل كل ما فى وسعها ، رغم ما يتصف به أبناؤها وزعماؤها من عيوب كامنة فى فطرة الآدميين ، لإرساء قواعد النظام الأخلاقى والاجتماعى ، ونشر العقيدة الدينية التى تسمو بالناس وتواسيهم وسط حطام حضارة قديمة ، وعواطف ثائرة ، لمجتمع يجتاز دور النقاهة .

لقد كانت أوربا حين وحدتها كنيسة القرن السادس أشبه ببضاعة متناثرة بعد غرق سفينة بضاعة من الهمج المتنقلين ، وكانت خليطا من الألسنة والعقـــائد ، وفوضى من الشرائع غير المسطورة التى لا يحصيها العد . ولكن الكنيسة وهبتها قانوناً أخلاقيا تؤيده سلطة فوق سلطة البشر ، تبلغ من القوة ما يكفى لقمع الغرائز غير الاجتماعية الكامنة فى نفوس ذوى العنف من الناس ، ووهبتها كذلك أديرة يلجأ إليها الرجال ، والنساء ، وتأوى المخطوطات القديمة ؛ وحكمتها بمحاكم كنسية ، وربتها فى المدارس والجامعات ، وذللت قيادة ملوك الأرض لتحمـــل التبعات الأخلاقية وواجبات السلام ، وخلعت على حياة أبنائها بهجة الشعر ، والتمثيل ، والغناء ، وأوحت إليهم أن يقيموا أجل ما فى التاريخ كله من أعمال فنية . ولما عجزت عن إقامة مدينة فاضلة تسودها المساواه بين رجال مختلفى الكفايات ، نظمت الصدقات والضيافات ، وحمت الضعفاء إلى حد ما من الأقوياء . وكانت بلا ريب أعظم قوة تعمل لنشر لواء الحضارة فى تاريخ أوربا خلال العصور الوسطى .